

حول سرير الامبراطور

ألفه

الدكتور كابانيس

نقله بتصرف

الدكتور نقولا فياض

عنيت بنشره

ادارة الهلال بمصر

٠٢٦

مقدمة

يختلف هذا الكتاب عن كل ما كتب عن نابوليون بكونه نظر اليه نظر الطبيب الفاحص والعالم المستقصي . فهو يدرس نابوليون الرجل صاحب الوراثة المرضية ، وما اكتنف نشأته من الأحوال وما كان من تأثير مزاجه وطباعه في جميع أدوار حياته

في هذه الفصول يجد القارىء درساً تحليلياً مبتكر الأسلوب لشخصية ذلك العبقري الفريد الذي لم تلد القرون له مثيلاً

وقد استشهد الكاتب بحوادث ونوادر كثيرة تزيد في طلاوة الكتاب كما تزيد في رونقه الصور الكثيرة التي تحلى بها

ادارة الهلال

الفصل الاول

نابوليون في نظر الطبيب

هـذا كتاب عن نابوليون يروي للقارئ شيئاً غير حروبه وفتوحاته

فلقد قيل وأثبت الطب ان للصحة والمزاج تأثيراً كبيراً في حياة الانسان وأعماله

وهذا ما نريد أن نلم به في كلامنا عن الامبراطور العظيم

ولا يتوهم القارئ ان هذا البحث خلو من الفائدة العملية فان رجلا كنابوليون طبقت شهرته الآفاق وترك طابعه على عصره والعصور التي تليه ليس من الحكمة أن يغفل تاريخه الصحي أو تجهل حالة سلالته من هذه الوجهة ولا سيما أنها تعد للباحث مثالاً واضحاً من الوراثة المرضية تتجاوز فائدته الطبية الى المؤرخ . فقد ظهر اليوم بما لم يبق معه مجال للشك ان هـذا المزاج الذي يسمونه الارتريتيكي (وسنعود الى الكلام عنه) هو من أهم عوامل التقهقر في الاسر المالكة

وقد كان نابوليون مقتنعاً بتأثير الوراثة الى حد انه وهو على سرير الموت كان شغله الشاغل أن تتخذ الحيطة اللازمة لحماية ابنه من الداء الذي هد كيانه



على فراش الموت
نابوليون يعطي للمارشال برتران السيف المعد لابنه

ولذلك أوصى بتشريح جثته وفحص معدته بوجه خاص لاعتقاده ان فيها مركز الداء ولم يخطىء ظنه كما أثبت التشريح المرضي بعد ذلك فقد وجدوا قرحة سرطانية في المعدة كما وجدوا أثراً للسلال في رئته

واجتماع العلتين أي السرطان والسل لم يكن معروفاً فيما مضى. أو بالاحرى لم تكن الآراء متفقة عليه . أما اليوم فقد أصبح من الامور المقررة امكان اجتماع الداءين في الجسم الواحد

بقي علينا أن نعرف اذا كان في أسلاف نابوليون من أصيب باحدى هاتين العلتين ولكن قبل الدخول في الموضوع يحق لنا أن نتساءل هل السرطان وراثي ؟

المعروف اليوم ان الانسان يرث عن أبويه الاستعداد أو التربة . وقد كان الاقدمون يعللون مصائب عظمائهم بأنها من غضب الآلهة وحكم الاقدار أما اليوم فقد بدلنا من هذا كله حقائق علمية من ضمنها حقيقة الوراثة المرضية ولا سيما الارترتيسم Artritisme

ما هو الارترتيسم ؟

كلمة لم يتفق العلماء على تعريفها فهي ليست علة واضحة كذات الرئة مثلا بل يراد بها مزاج خاص تسوء فيه التغذية فتنتج عنها أعراض مختلفة . ولا يعنى بالتغذية الطعام والشراب بل الوظيفة الاولى التي تقوم بها المادة الحية أي مجموع التفاعلات والمبادلات الحادثة بين الكائن الحي والبيئة التي يعيش فيها ويتغذى منها

أظنك أيها القارىء لم تزدد بياناً بهذا التعريف . حسبك أن

تعرف ان كلة الارتريتيسم تشمل النقرس والبول السكري والروماتزم وحصوة الكبد والكلية والصداع والربو والبواسير والطفح الجلدي وبعض اشكال سوء الهضم والالتهاب المعوي . كل هذه الامراض



شارل بونابرت ، والد نابوليون

ترجع الى نسب واحد وأسرة واحدة فينوب بعضها عن بعض بالانتقال الوراثي أي ان البول السكري قد يورث الربو والنقرس [illegible] في آخره

والارتريتسم على نوعين فنه ما يصيب المزاج العصبي فيكون صاحبه نحيل البدن قليل شعر الرأس ومنه ما يصيب اللمفاوي فيكون سميناً محتقن الوجه

وقد مثل نابوليون الدورين ولبس الحالتين فصار في الكهولة الى عكس ما كان عليه في شبيبته فبعد أن كان نحيفاً نشيطا أمسى بديناً مترهلا على تثاقل في الهمة وتردد في العزيمة كما سيمر بك

وهذه الوراثة المرضية تأتي في الغالب عن الاب دون الام حسبما ظهر من احصاءات العارفين وما كان نابوليون ليشذ عن القاعدة فقد اشتهر عن أبيه وجده أنهما ماتا بالسرطان وهو نبأ يحتاج الى دليل بالنسبة الى الجد أما الاب فمما لا ريب فيه أنه مات كذلك كما ظهر من تقرير الاطباء الذين شرحوا جثته وقد وجدت نسخة من هذا التقرير عند البارون ديبوا مولد ماري لويز . والظاهر أن الاطباء أرادوا في كتابة هذا التقرير خدمة الاسرة اعتماداً منهم بتأثير الوراثة . ولذلك نجد فيه بعد الوصف والتشريح الكافي عن حالة معدة شارل بونابرت والورم الذي فيها اسهاباً في ذكر العلاج والغذاء الملائم لمن يصاب بمثل هذا الداء . نعم ان كلمة سرطان لم ترد في هذا التقرير ولكن كل ما قيل فيه ينطبق عليه . وفضلا عن ذلك فان شارل بونابرت مات في الاربعين وعمه كان مصاباً بالنقرس وكانت آلامه شديدة الى حد أنها ألهمت أحد أحفاده وهو نابوليون أن يكتب الى الدكتور تيسو وهو طبيب مشهور في سويسرا ليستشيره بشأنه . ولا بأس من عرض صورة هذا الكتاب التي تمثل صفحة



ليتسيا بونابرت ، والدة نابوليون

من حياة نابوليون ونفسه في زمن الفتوة :

« سيدي

« قضيت أيامك في خدمة الانسانية وطار اسمك في العالم حتى اخترق جبال كورسيكا التي قلما يحتاج الانسان فيها الى طبيب. لم أتشرف بالتعرف اليك الا أن ما أسمعه عن علمك وفضلك يجرئني على مكاتبتك لاستشيرك بشأن عم لي مصاب بالنقرس

«ولا يوافقني في هذا الحديث أن أعترف بعمر عمي البالغ السبعين ولكن لا تنس يا مولاي أن في امكان الانسان الوصول الى المائة وما فوقها وبنية عمي تسمح له أن يكون في عداد هؤلاء المتازين وهو فضلا عن ذلك يعيش باعتدال وحكمة لا تعصف به أهواء النفس ولا تثيره زوابع الحياة كما أنه لم يصب أبداً بعلة من العلل ولم يشك ألماً من الآلام . واذا كنت لا أجاري فونتانل فأقول عنه انه كان يملك الخلتين اللتين تضمنان العمر الطويل : الجسم الصالح والقلب الطالح فأنا أعتقد أنه مع ميله للانانية لم يضطر الى الاغراق فيها

« وقد تنبأ أحدهم له في صباه أنه سيصاب بهذا الداء مستنداً في ذلك الى صغر يديه وضخامة رأسه. ولكنك ترى مثلي -على ما أظن- أن ذلك من قبيل الاتفاق »

وبعد أن يصف نابوليون داء عمه وما يقاسيه من الاوجاع يختم كتابه الى الطبيب بهذه العبارة :

«الانسانية يا مولاي تجعلني على أمل من جوابك. أنا نفسي

أتعدب مد شهر بالحمى المتقطعة ولهدا أشك في أنك ستقرأ بسهولة أسطري هده



لدكتور تدسو (من لوزان)

« واحتم تعدير لاحترام الدي يوحيه الي فصلك السابق واللاحق
وبانارت صاط في المدفعية سنة ١٧٨٧

أما تيسو الطبيب فلم يتبارك الى الاجابة عن هـذا الـكتاب ولم يعلم أكان ذلك منـــه نسياناً أم اهمالا أم ظن أن هذا الغريب المجهول يحاول أن يستفيد من علمه مجاناً بلا أجر ولم يدر في خلده أن سائله هذا سيملأ اسمه الخافقين



نابوليون بونابرت بلباس شرقي

الفصل الثاني

ميلاد نابوليون وطفولته

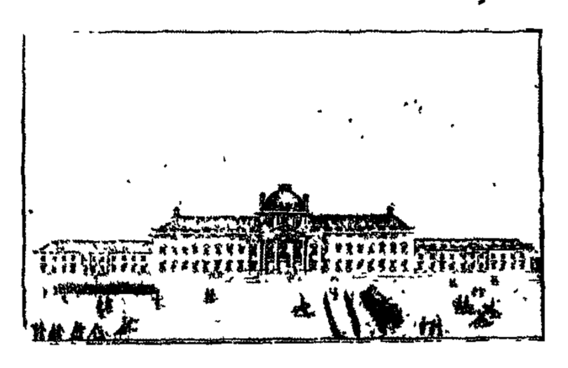
ولد نابوليون في اجاكسيو في ١٥ أغسطس سنة ١٧٦٩ بعد أن ضمت كورسيكا الى فرنسا باتفاق بين جمهورية جينوا ولويس الخامس عشر

وكان نحيف البدن ضعيفاً الى حد أن أمه استعانت بمرضع لتغذيته خوفاً عليه واشفاقاً ولم تجسر على تعميده الى أن بلغ السنتين وولدت اخته ماري حنة فانتهزت الفرصة وعمدتهما في وقت واحد . وكان يمتاز منذ ذلك العهد برأس كبير لا يكاد يستقر على عنقه وكلما ترعرع زادت ملامحه وضوحاً في الدلالة على قلة الصبر وسوء الطبع وشدة العناد فلم يكن يقوى عليه أحد غير أمه التي كانت على حنوها الشديد نحوه صارمة في معاملته حتى اضطرت مرة الى جلده وقد بقي تذكار ذلك الجلد حاضراً في ذهن الامبراطور الى الساعة الاخيرة كما روى خادمه في جزيرة المنفى

وكان على الرغم من المعارضة واللوم والتأنيب قوي الحجة كثير اللجاج يحب التدخل في كل أمر وفي ذلك يقول عند المقابلة بينه وبين ابن الجنرال برتران « كنت كهذا الولد عنيداً أحب الخصام ولا أهاب أحداً فأضرب هذا وأخدش ذاك بأظافري ولا أخضع

الا لوالدتي التي كانت تعرف أن تضع الجزاء والعقاب كلا في موضعه

ومن الحوادث التي تظهر بعض ما كان عليه نابوليون من العزم والعناد في طفولته ما روته الكونتيسة دورسه عن أمه وكان عمره يومئذٍ ٧ سنين . قالت :



المدرسة الحربية الملكية في عهد لويس السادس عشر

« كان نابوليون يتمشى في الحديقة فدهمه المطر وكانت أمه تراقبه من وراء زجاج النافذة وتشير عليه بالدخول أما هو فلم يحفل باشارتها وظل على حاله دون أن يسرع الخطى على الرغم من انهمار السيل وقصف الرعد وثوران الزوبعة بل كان كأنه يشعر بلذة غريبة لوجوده في تلك الحالة ولما انقطع المـاء وصفت السماء عاد وقد أصابه البلل حتى العظم، كما يقولون ، وسار تواً الى أمه يستغفرها عن هذا العصيان

محتجاً بوجوب التعود على معاكسات الجو لانه سيكون جندياً »

وكانت رغبته في الخدمة الحربيـة ظاهرة في أكثر حركاته فـكان يرسم على الجدار صور الجنود وقد اصطفت للقتال كما كان يبدل من خبزه الابيض بخبز الجنود الاسمر

هذه الامور تافهة في ذاتها ولـكنها ذات قيمة في حياة الرجل العظيم لانها تظهر تلك البذرة التي خرجت منها تلك الشجرة الـكبيرة فتجعلنا نفهم أسرار الغرابة التي كانت تتجلى في كثير من أعماله

ومرت طفولة نابوليون بغير علة تذكر وانقضى طور التسنين دون أن يحدث في حالته العمومية تأثيراً لولا قليل من الصفراء والاسهال تركا وجهه شاحباً قاتماً وجعلاه عصبياً قليل النوم سريع التهيج مما جعل ذويه غير مرة يجبهونه باللوم والتأنيب دون ان يدركوا أنه غير مسئول عن هذه الحالة لانها حالة مرضية . وكم من الوالدين حتى يومنا هذا يسيرون مع أولادهم على هذا النمط اذا بدر منهم بعض الحدة او ظهرت عليهم اعراض الـكسل فيقسون حيث يجب اللين ولا يبحثون عن السبب الذي كثيراً ما يكون من اختلال وظائف الهضم أو اعتلال احد الاعضاء الرئيسية او التهاب الحلق او الاذن وما شاكل هذا

وأدخل نابوليون الى المدرسة قبل العاشرة فلبث في «اوتن» مع اخيه جوزف ثلاثة اشهر وعشرين يوماً منتظراً من حين الى آخر أن ينتقل الى مدرسة بريان Brienne الحربية

ولم يغب عن أساتذته في اوتن ما كان عليه من العبوس والتفكير

لانه كان يحب الانزواء فلا يعاشر أحداً ولا يشترك مع رفقائه في الالعاب الرياضية وغيرها وكان يختلف عن اخيه جوزف كل الاختلاف في العريكة والاخلاق ولا يشابهه الا في الاجتهاد وحب المطالعة

وبعد زمن قصير ورد على أبيه كتاب من وزير الحربية البرنس مونباره يبشره فيه بتنازل الملك الى قبوله في عداد تلامذة مدرسة بريان . وكانت هذه المدرسة خصيصة بالنبلاء فوجد نابوليون نفسه غريباً فيها مضطهداً من رفقائه ابناء الاسر العريقة في النسب المتنفخين غروراً افتخاراً بالمال . ومن قرأ كتابه الى أبيه يومئذ يتبين من خلال سطوره شدة الحنق الذي كان يلهب قلب هذا الشاب في اول مرحلة من حياته. فقد جاء فيه: « اذا كنت لا تستطيع أن تعطيني ما يلزم لاعيش في هذا المعهد فادعني اليك حالا فقد سئمت نفسي التظاهر بعدم الاكتراث بينما أعيش على مرأى ومسمع من هؤلاء الاغرار الذين لا يمتازون عني بشيء سوى غناهم »

وكانت رغبة الملك أن يتم على أولاد النبلاء نعمة التربية الاجتماعية فأدخل في نظام المدرسة ما يوجب اختلاط التلامذة بعضهم ببعض لتلين طباعهم بالاحتكاك ويخف كبرياؤهم فيتعودوا النظر الى سواهم نظرة أدنى الى العدل والمساواة . وكانت مدة الدراسة ست سنوات لا يجوز في خلالها لتلميذ ان يطلب اذناً بالتغيب . كما أنه من الواجب على كل فرد ان يلبس ثيابه ويغسلها بدون مساعدة خادم أو أجير وأن يجعد شعره بنفسه ويرسل منه ضفيرة صغيرة الى الوراء ولا يحق له ان يذر عليه « البودرة » الا في الآحاد والاعياد . اما السرير

فكان بسيطاً فراشه وغطاؤه لا يغيران صيفاً ولا شتاء

وكانت الرياضة البدنية وكل ما يزيد في قوة الجسم وخفته من الامور الضرورية . اما الرقص والموسيقى فليس لهما ان يأخذا من اوقات الدرس كثيراً ولا قليلا . وكان العقاب بالضرب ممنوعاً لان الضرب « مما يضر بالصحة ويذل النفس ويفسد الاخلاق » ومن الواجب تجافي العقاب ما امكن لانه يجلب العار على التلميذ ويحط من كرامته

تلك هي الشرائط التي جرى عليها نظام مدرسة بريان لاعداد رجال اقوياء بدناً وعقلا . على انها لم تكن تحترم كل الاحترام فكم تغيب تلميذ وكم عوقب بالضرب سواه . حتى ان نابوليون استحق القصاص مرة فأمر ان يركع امام باب غرفة الاكل ويتناول طعامه على هذه الحال فأطاع إلا انه ما كاد يحني ركبتيه حتى أصابه قيء شديد ونوبة عصبية واتفق ان مر المدير حينئذ فأخذه بيده بعد ان وجه الى المعلم كلمات اللوم وأسرع استاذه في الرياضيات شاكياً محتجاً على اهانة افضل تلاميذه

وكانت العادة أن يزور المدارس الحربية بين آونة واخرى مفتش خاص غايته فحص التلاميذ والاشراف على أحوال معيشتهم ودروسهم وصحتهم ليقدم بذلك تقريراً وافياً الى الوزير فجاء بريان هذه المرة المسيو ده كراليو وذلك في سبتمبر سنة ١٧٨٣ ولما رأى نابوليون أدرك حالا ما عنده من الاستعداد على الرغم من أن معارف التلميذ الشاب كانت وقتئذ قليلة لا تكاد تتعدى الرياضيات فوقع

اختياره عليه لارساله الى باريس وحرر بذلك شهادة أتى فيها على وصفه من حيث القامة والبنية والصحة ولم ينس أن يذكر فيها أنه ضعيف في اللغة اللاتينية وفي الالعاب

ثم جاءت أمه لزيارته فأفرغت جهدها في اقناعه بالعدول عن البحرية حيث لا يجد الا عدوين: الماء والنار. والذي زادها قلقاً عليه ما رأت من نحوله وتحول ملامحه حتى أنها أبت بادىء ذي بدء أن تصدق انه ولدها كما يقول نابوليون نفسه في حديث له مع الجنرال مونتولون، لانه حقاً كان قد تغيرت صحته وساءت كثيراً لافراطه في الدرس وسهر الليالي مكبا على المطالعة وذلك « لان فطرته كانت تأبى عليه الا أن يكون الاول في صفه »

ولا توجد تفاصيل عن حياة نابوليون في بريان سوى ما كتبه أحد رفقائه في المدرسة ونشره بعد سقوط الملكية أي سنة ١٨١٥ فقد جاء في هذا الكتاب أن نابوليون كان يجهل تقريباً الفرنسوية فعينوا له أستاذاً خصيصاً هو الاب ديبوى وكانت ذا كرته ضعيفة جداً بحيث لا يقوى على استظهار دروسه الا أنه كان يفهم بسرعة معنى كل ما يقرأ وقد قرأ كثيراً وخصوصاً التاريخ

وكان متطرفاً في مدح الانكليز وذم الفرنسويين وقد اضطر فيما بعد الى تغيير رأيه هذا . وكان لون وجهه أصفر شديد الاصفرار فكان يعلل ذلك بأنه وهو في المهد كانت الحرب مستعرة في كورسيكا فاضطرت مرضعه أن تلتجىء به الى الجبال وجلبت له عنزة تشاركها



بونابرت حين كان طالباً في المدرسه الحربية الملكية

في ارضاعه لقلة لبنها ولكن العنزة ماتت فلم تجد غير الزيت لتغذيه به (كذا)

ويقال ان نابوليون لم يكن ليشترك مع رفقائه في الرياضة واللعب ولكن الكاتب الذي يدعي أنه رافق نابوليون أيام المدرسة يقول انه في باريس كان يلعب كغيره ولا سيما لعبة تسمى لعبة اللص وأخرى لعبة الصيد وكلاهما حركة وركض . أما ألعاب الخفة فكان يجهلها تماماً حتى انه لم يكن يعرف أن يرمي حجراً فيصيب بل انه كان عاجزاً عن تجعيد شعره بذاته وقد بلغ ذلك منه أن سمح له بالشذوذ عن القاعدة فصار يدعو مزيناً لتجعيده وارسال جديلة وراء رأسه حسب زيّ تلك الايام

وقد غادر نابوليون بريان في ١٧ اكتوبر سنة ١٧٨٤ غادرها غير آسف لان شوقه الى كورسيكا لم يزل متقداً وحنينه الى سمائها الجميلة لم يزايل فؤاده لحظة

أما مدرسة باريس فقد أنشئت على عهد لويس الخامس عشر بالقرب من الانفاليد كأنما أراد منشئها أن ينعش الابطال القدماء ويفرح شيخوختهم بمنظر الشباب المعزي . ثم أقفلت واعتيض عنها بمدرسة خاصة أعدت لقبول زهرة الطلاب ممن امتازوا في دروسهم من أي بلد فرنسوي كانوا . وقد أظهر نابوليون انه حائز الصفات المطلوبة فقبل فيها بسهولة

ولا نعرف من حياة نابوليون في هذه المدرسة الملكية الا نتفاً يرويها رفقاؤه ومنها هذه الحادثة التي تدل على نفسه : كان الاعتراف

اجبارياً في المدرسة فاذا لم يجيء التلميذ من تلقاء نفسه الى الكنيسة جيء به غصباً ووقف عند الباب حارس يمنعه من الخروج قبل أن يتم هذا الفرض الديني . فلما جاء دور نابوليون ووقف أمام الكاهن سأله هذا عن وطنه فأجابه انه من كورسيكا فما كان من الكاهن الا أن انطلق في ذم الكورسيكيين وعد عيوبهم ولصوصيتهم فتكدر نابوليون واحتدم الجدال بينه وبين معرّفه حتى انتقل من السب الى التهديد وانتهى بأن ضرب نابوليون بقبضة يده على الحديد الفاصل بينه وبين الكاهن فكسره وهجم عليه ولولا الحارس الذي أسرع الى الفصل بينهما لكانت معركةً دموية . ولم يعاقبه رؤساؤه على ما جرى لانه لم يفعل ذلك الا دفعاً للاهانة التي أراد أن يلصقها الكاهن ببلاده

واليك حادثة أخرى ليست اقل دلالة على أخلاقه :

كانت العادة اذا مات قريب لطالب أن ينبئوه بذلك تدريجاً بعد أن يُدعى الى غرفة خاصة يكون فيها وحده فيتسع له الاستسلام للحزن والبكاء . فلما مات والد بونابرت دعاه الرئيس وأخبره بمصابه وأشار عليه أن يختلي الى نفسه في الغرفة المعدة للراحة والتعاليب . فما كان من نابوليون الا أن أجابه : « لن أذهب فالبكاء للنساء أما الرجل فعليه أن يتعلم كيف يتألم وأنا لم أصل الى هذه الساعة دون أن أفكر في الموت وأعوّد نفسي عليه كما أعودها على الحياة » ولم تنحدر له دمعة وبقي متتبعاً دروسه بهدوء كأن لم يمت له احد وكان يسمي هذا فلسفة

وخرج نابوليون من المدرسة في أكتوبر سنة ١٧٨٥ قاصداً ڤالانس حيث انفتحت أمامه أبواب البيوتات وأخذت الطبقة الراقية تستقبل بلطف واعجاب هذا الضابط الشاب الذي يحمل في جيبه شهادة ليوتنان في فرقة المدفعية . ويقال انه عندما بلغ قمة مجده سنة ١٨٠٧ وصله يوماً من معلمه الرقص هذه الكلمة : « ان الذي قاد خطواتك الاولى في الصالونات يستنجد كرمك اليوم »

ويشهد احد المؤرخين ان ڤالانس واجتماعاتها كانت له مدرسة كبرى شحذ فيها غرار ذكائه وادخر ذلك الاختبار الواسع وهو الذي يصفه بقوله : كان صغيراً حليقاً أصفر بالغاً من النحول حده الاقصى . ضيق الكتفين تحت ثوبه الحربي محيط برقبته ربطة معقدة ويغطي أذنيه شعر رأسه المنبسط . وكان غائر الوجنتين مطبق الشفتين حاد النظر قليل الكلام وجيز العبارة اجش الصوت . وكل ملامح وجهه تدل على العناد والعزم وكثرة التفكير وحب الانفراد والنفور من الناس

وكان يشغل أوقات الفراغ بالقراءة والتأملات . وأحب المؤلفين اليه روسو الذي ترك أثراً في كل ما كتب من ١٧٨٦ الى ١٧٩٣ ولكن كان لهذا الميل والحب حد فسيجيء يوم يقول فيه عن معبوده الفيلسوف : كان خيراً لفرنسا وراحتها ألا يولد هذا الرجل

الفصل الثالث

فتوة نابوليون

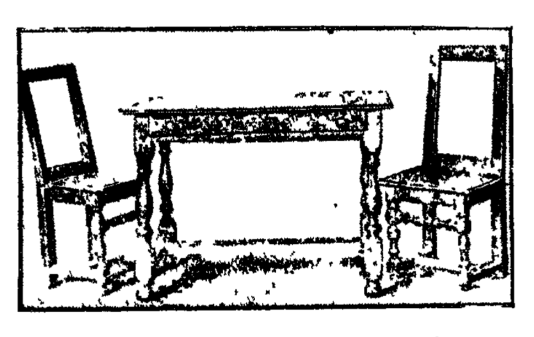
اختلف المؤرخون في تاريخ اليوم الذي غادر فيه الضابط الشاب فالانس الى ليون فزعم بعضهم انه اصيب في هذه المدينة بحمى الزمته الفراش أياماً وكانت سبباً في تعرفه بآنسة من جنيف اسمها اوجيه وهي التي اهتمت به وأحاطته بعنايتها وعطفها حتى الشفاء ولكن مفكرات نابوليون لا تذكر شيئاً من هذا بل فيها أنه ترك فالانس قاصداً اجاكسيو في سبتمبر سنة ١٧٨٦ وعمره يومئذ ١٧ سنة

ولدى وصوله الفى عمه الارشيدياك تضنيه آلام النقرس وتبرح به وقد أعيا داؤه أطباء الجزيرة فرأى ان يكتب الى الدكتور تيسو، كما مر بك، والدكتور تيسو واسع الشهرة وهو عضو في الجمعية الملكية وجمعية بال الطبية وجمعية برن الاقتصادية فليس غريباً أن يتجه نابوليون بأفكاره اليه ويعلق آماله عليه. ولا نعلم أي تأثير ترك في نفس نابوليون اغفال هذا العالم الرد عليه على الرغم مما أولاه من ثناء وتمجيد

ولشدة الداء امتنع عمه عن العمل بتاتاً فاصطر نابوليون ان يتسلم زمام الادارة في البيت لان شقيقه الاكبر كان على سفر الى بيزا فلم يبق لنابوليون من سبيل الى ترك اجاكسيو حينئذ فكتب

الى وزير الحرب يسأله أجازة خمسة أشهر مع حفظ معاشه فأجابه الى طلبه

وقد يتعجب القارىء لهذا الغياب المتكرر من المدرسة ولكنها عادة جرى عليها الجميع من الكولونيل الى الماجور الى الليوتنان



مائدة وكرسيان وجدت في الغرفة التي كان يشغلها بونابرت في اوكسون حينما كان ليوتنان المدفعية

وهكذا كان نابوليون يروح ويجيء بين فرنسا وكورسيكا محتجاً بضعفه حيناً واعتلال أمه حيناً آخر

وقد كانت امه استفادت فيما مضى من حمامات جوانيو الواقعة في كورسيكا على مسافة ثلاثين كيلومتراً من اجاكسيو فرافقها ابنها اليها هذه المرة وكانت جوانيو او كوانيو عظيمة الشهرة لذلك العهد يؤمها الناس من كل صوب فيجتمع فيها زهاء ثلثمائة بين مريض يرجو

الشفاء ومتعب يطلب الراحة من هموم الاعمال او عراك السياسة. وفائدتها الكبرى هي تسكين الاوجاع العصبية ، تلك الاوجاع التي منيت امه بها وانتقل اليه شيء منها بالوراثة كما ورث عن ابيه استعداده المرضي . وقد كان يعلم أنه مدين بما فيه من الحالة العصبية لامه خصوصاً ولهذا كان يقول عن نفسه : « رأس رجل على جسم امرأة »

ولم يغادر نابوليون كورسيكا الا في شهر اكتوبر سنة ١٧٨٧ فوصل باريس في التاسع من نوفمبر ونزل في أوتل شربورغ بشارع سنت أونوره

ومن راجع مفكرات نابوليون وقرأ ما كتب بعنوان «أدوار حياتي » يجد هذه العبارة : « وصلت الى اجاكسيو سنة ١٧٨٦ في سبتمبر وتركتها سنة ١٧٨٧ في سبتمبر ثم عدت اليها في يناير وتركتها في يونيو الى اوكسون »

أما حياته في اوكسون فلم نعرفها الا على وجه التقريب بعد البحث في مختلف ما كتب عنه . والظاهر أنه كان يسكن فيها مع أخيه الصغير لويس في الطابق الثالث من جناح الثكنة وكانت غرفته مظلمة يدخلها الهواء من نافذة صغيرة . وهناك وجه كل همه الى الرسم والرياضيات وعلم الفراسة وكان له صديق اسمه دي مازيس يختلف في الاخلاق عنه كل الاختلاف ومع ذلك فقد تمكنت بينهما أواصر الود فكانا يأكلان معاً ولضيق ذات اليد أراد نابوليون أن يعيش باللبن وحده مدعياً المرض ففعل صديقه مثله وشاركهما في هذا النوع من الاضراب عن الطعام رفيق ثالث

وكان من شروط هـذا الاتفاق الثلاثي أن يؤلف كل بدوره قصة نثرية يقرؤها بعد الغداء فعاشت القراءة بقدر ما عاش الاتفاق لان معدة نابوليون قصرت عن احتمال اللبن بل ان هذا الحرمان أثّر في صحته فاعتلت واضطر الى ملازمة الفراش . ولم يدخل الى المستشفى حينئذ لان النظام كان لا يسمح بالدخول اليه الا لمن كان في خطر . وفضلا عن ذلك فانه كان يعاف الادوية ويأنف الخضوع لنظام المستشفى

وكان طبيبه في تلك المدة الدكتور بيانفلو فلما صار نابوليون قنصلا اول سنة ١٨٠٢ واستعرض الجيش في ساحة مارس كان بيانفلو لا يزال في وظيفته فعرفه نابوليون حالا وصاح به : أي بيانفلو ألا تزال غريب الاطوار . فأجابه هذا : « ليس بالمقدار الذي أنت فيه من الغرابة أيها القنصل الذي لا يعمل مثل سواه ولا يجد من يقلده » والظاهر ان الجواب لم يغضب نابوليون فسمى الطبيب عضواً في جوقة الشرف وبقي في وظيفته الى سنة ١٨١٥

ما هو ذلك المرض الذي أصابه في اوكسون وكم كانت مدته ؟ ربما كان الحمى الراجعة الكثيرة الانتشار في تلك البلاد والتي كان نابوليون معرضاً لها ولا يجهلها كما ترى من كتابه لامه اذ يقول : «صحتي الآن أحسن فأستطيع ان احرر لك . ان المناخ هنا سيء لوجود المستنقعات وفيضان النهر المتواصل الذي يملأ الحفر بماء آسن . وقد تعبت كثيراً لتعدد نوبات الحمى المنهكة وأما الآن بعد ان صحا الجو وذاب الثلج وتبدد الضباب فاني أشعر بتحسن سريع »

ولم تمنعه آلامه من متابعة دروسه فكان يستيقظ الساعة الرابعة ويبدأ بالعمل ولا يأكل الا مرة واحدة في النهار نحو الساعة الثالثة وبعد شهر من مرضه طلب ان يستريح فلم يرفض طلبه هذه المرة أيضاً فذهب الى اجاكسيو وقصد الى الاستشفاء بمياه اورتزيا الحديديه ثم عاد الى اوكسون مصطحباً معه أخاه الصغير لويس يرشده ويدربه ويعلمه الرياضيات والتاريخ

وفي ابريل سنة ١٧٩١ رقي الى رتبة ليوتنان اول في فرقة كرنوبل فذهب الى فالانس وأقام فيها زمناً ومنها سافر الى كورسيكا ثم عاد الى باريس والثورة في غليانها

يقال ان أخاه لويس دخل عليه يوماً متأخراً عن عادته فلامه اخوه على كسله فقال له معتذراً لقد كنت أحلم حلماً جميلا وهو اني صرت ملكا فقهقه نابوليون وقال: « انت ملك ؟ هذا يكون يوم أصير امبراطوراً » ولم يدر في خلده ان تلك النبوة ستصدق

ويقال ايضاً انه مر في ساحة التويلري في يونيو سنة ١٧٩٢ بين الهرج والمرج وازدحام الشعب المسلح الهاجم على القصر وكان الراوي وهو أحد المحامين يحادث صديقاً له عن الاحوال الحاضرة فقاطعهما شاب مجهول اصفر اللون حاد النظر قوي الصوت وقال لهما: « لو كنت أنا الملك لما صار شيء من هذا ابداً » وعرفا فيما بعد ان هذا الشاب هو بونابرت

وفي سنة ١٧٩٣ أصابه في افنيون مرض فامتنع عن العمل ولكنه لم يمتنع عن الكتابة فالف عشاء بوكير Souper de Baucaire بانشاء

سهل مقبول يظهر من خلاله محبته للعلم والمطالعة وميله الى التدقيق

وبعد حين وطئت اقدام نابوليون ارض نيس وكانت الساعة تقترب، تلك الساعة التي سيمثل فيها على مسرح السياسة دوره العظيم

ففي ليلة من ليالي اكتوبر سنة ١٧٩٣ انتشر نبأ الخيانة وتسليم طولون للانكليز وكان نابوليون قائماً بوظيفة في المدفعية قياماً لا مأخذ فيه لطاعن فاعجب به قائد الفرقة ايما اعجاب وقد ذكر المؤرخون كيف دعي نابوليون بونابرت لقيادة الجنود التي عهد اليها استرجاع طولون

من ذلك اليوم أخذ نجمه يلمع في الافق . من ذلك اليوم تسلمه التاريخ تسلماً ابدياً . من ذلك اليوم ارتدى ثوب الخلود

الفصل الرابع

نابوليون يتسلمه التاريخ

لم يكن استرجاع الفرنسويين مدينة طولون كافياً لتلفت الانظار الى نابوليون . نعم ان هـذا الحادث الخطير كان اول انتصاراته ومطلع مجده الا انه لم يوطىء له مهاد الشهرة فبقي كما كان مجهولا حتى انه لم يرد لاسمه ذكر في التقرير الذي رفعه القائد ديجوميد الى «الكونفانسيون» ولا في المراسلات التي كانت على اتصال بين الضابط مارمون واسرته على وجود مارمون معه في المدفعية ومرافقته له كل حين . وكل ما ورد بشأنه هو هذه الجملة فى احدى رسائل مارمون الاب : « من هو هذا الجنرال بونابرت ومن أين اتى ؟ لا علم لاحد به » ذلك لانه لم يكن معروفاً حتى تلك الساعة ثم أخذت الاقدار تساعده وتنتق امامه سبل الشهرة والمجد

والحق اولى ان يقال ، ليس فى النـاس من ساعد حظه على الظهور وخدم شهرته كنابوليون فقد كان في طولون يقدم على الموت غير هياب ولا وجل ويهجم في طليعة فرقته تحت رصاص العدو المنهمر كالسيل مدفوعاً بحماسة الشباب وحدة المزاج متنقلا من جهة الى جهة كأنه يحاول ان يكون في كل مكان . وكان من جراء هذه المجازفة بحياته أن قتل تحته جواد واصابته طعنة حربة في فخذه سببت له



نابوليون يتفقد المصابين بالجرب في يافا (نقلا عن صورة للمصور جرو)

جرحاً بالغاً كاد يقضي بقطع ساقه . ذلك ما جعله يقول وهو في السفينة التي كانت تقبله الى جزيرة القديسة هيلانة ان أول من جرحه كان انكليزياً

وقد اصابه في الجيش داء الجرب المنتشر يومئذ انتشاراً هائلا فكانت النتيجة ان ظهر فيه مرض جلدي نسميه نحن الاطباء اكزيما واستعصى عليه شفاؤه . وكان سبب الجرب لذلك العهد مجهولا فلم يكن أحد يجسر على معالجة الطفح الناتج عنه خوفاً من ان يغور في الجسم ويسبب علة اخرى اشد وطأة واصعب علاجاً وهذا ما يفسر لك كيف انه عندما جاء مصر وظهرت فيه لاول مرة اعراض الداء في معدته لم يجد الاطباء خيراً من ان يلفوه بثوب مريض بالجرب ظناً منهم بل اعتقاداً ان ارجاع البثور الى جلده هو أفضل واسطة لتحويل الالم عن معدته

وكان الاطباء يعتقدون فائدة التطعيم بالجرب حتى ان أحد النورمانديين المشهورين ادعى شفاء السل به وغيره شفاء الصرع وبقيت هذه الطريقة الوحشية يتخذها الطب سلاحاً الى أن عرف اصل الجرب وماهيته

ولبث نابوليون زمناً طويلا متأثراً بذلك الداء . حكى الدكتور انتومارشي طبيبه في منفاه انه رآه مرة هائجاً مضطرباً فاشار عليه ببعض المسكنات فاجابه الامبراطور: « اشكرك ولكن عندي ما هو أفضل من عقاقيرك . وارى الساعة قد دنت والطبيعة تمد يدها لمساعدتي » قال هذا وانطرح على المقعد وقبض على فخذه الايسر

واعمل يده في الجرح فانفتح وسال الدم ثم قال: «هأنذا قد استرحت ألم اقل لك ان لي نوبات كلما آن أوانها جلبت الراحة لجسمي» . وكان بعد ان يسيل الدم ويجف الجرح ويندمل يقول للطبيب: «أرأيت



الدكتور دجنت
(نقلا عن رسم لدوترتر)

كيف أن الطبيعة تتكفل بكل ما يلزم فترجع التوازن الى الجسم كلما افلت منه »

قال انتومارشي: فحيرني هذا الحادث ودفعني الفضول الى درسه فتبين لي بعد البحث انه قديم يتكرر آونة بعد اخرى ويرجع تاريخه الى حصار طولون!

ولما هوى روبسبير كان نابوليون في حالة شديدة من التعب والضعف فذهب الى ذويه على مقربة من أنتيب طلباً للراحة وهنالك لم ير بداً من دعوة طبيب لمعالجته فجاءه الدكتور دجنت وكان موضع ثقته واحترامه الا انه تمادى معه في الجدل فغير رأيه فيه ولم يرد ان يستعمل الدواء الذي أشار عليه به وربما كان هـذا الاهمال سبب التمادي في ضرره

اما معرفته بالدكتور دجنت فيرجع عهدها الى نيس عندما كان الضباط يجتمعون في مخازن الازياء حول بعض البائعات الجميلات وكان بونابرت في عدادهم على انه لم يكن يريد الا المحادثة فقط ولا يخرج دون ان يشتري شيئاً ولو زهيداً . وكان معروفاً منذ ذلك الحين ببروده ولكن الايام والضعف قد اضافا الى ذلك معايب اخرى فكان في الزمن الاخير ايام اجتماعه بالطبيب لمعالجته قبيح المنظر قليل العناية بذاته هزيلا اصفر اللون محدودب الظهر كما روت الدوقة درانتس

واليك صورة من نابوليون وهو في السادسة والعشرين كما رسمها لنا ستاندل :

كان أغرب رجل عرفته في حياتي وأشد الناس هزالا . وكانت ثيابه رثة خلقة حتى لا يكاد الناظر اليه يصدق انه جنرال ولكنه كان جميل النظر فتان اللحظ ممتلئاً حياة حين يتكلم ولولا نحوله البالغ حده الاقصى لاجتذب الانظار ما فيه من رقيق الملامح وجميل الابتسام

اما شجاعته فلم يكن سبيل للشك فيها

وفي احدى التظاهرات كان نابوليون الجنرال يسير على حواده وهو حديث العهد بالابلال فاحاطت به عصبة من النساء بين العويل والوعيد يطلبن خبزاً وتقدمت اليه منهن واحدة بدينة وهي تصيح :



نابوليون على جمله في مصر

«ألا ان هؤلاء الرجال يهزأون بنا ولا يهمهم مات الشعب او عاش اذا ملأوا بطونهم وسمنوا هم» . فاجابها نابوليون بلطف : «انظري يا سيدتي من منا نحن الاثنين اكثر سمناً ؟» . وكان في ذلك اليوم شديد النحول كثير الاصفرار غائر العينين

وفي ٨ مارس سنة ١٧٩٦ تزوج من أرملة بومارشه وفي ٢١ منه ذهب لتسلم قيادة جيش ايطاليا وبقيت صحته في اعتلال كما يظهر من رسائله الى زوجته جوزفين ععدم استعفاءه في سبتمبر

ومن ١٠ سبتمبر سنة ١٧٩٧ الى ١١ مايو سنة ١٧٩٨ اي مدة اقامته فى باريس قبل الرحيل الى مصر أخذ يشعر بالتحسن والعافية

ولكن زوجته جوزفين كانت قلقة عليه فاجتمعت في احدى السهرات عند باراس بالطبيب كورفيزار وسألته رأيه في الداء الذي يمكن ان يخاف منه على صحة الجنرال فاجابها على الفور انه سيموت بالقلب وسمع نابوليون ذلك فالتفت الى كورفيزار وقال : « وهل كتبت في ذلك كتاباً ؟ »

— كلا غير اني عن قريب سأفعل

— اكتب اذاً اكتب . ومتى أتيحت لنا فرصة تكلمنا معاً عنه

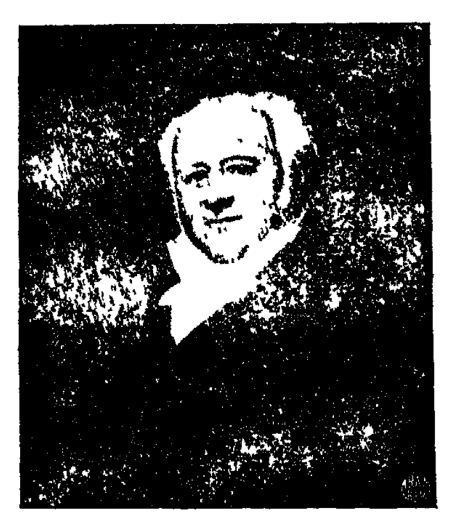
أما الكتاب فلم يظهر الا بعد سنين ولم يقدمه كورفيزار الى الامبراطور الا بعد الطبعة الثانية وقد صدره بهذه الكلمات :

« الى جلالة الملك والامبراطور

« ان سماح جلالتك لي أن أقدم لها هذه الطبعة الثانية من كتابي هو أحسن مكافأة لعملي الحقير . ولقد كان من الصعب قبلا أن يقدم مؤلف كتابه الى ملك ولا يبالغ في عبارات المدح أما اليوم فالمبالغة نفسها قاصرة عن أن تفي بمدح نابوليون

« ولكن يا مولاي اذا كان العقل يدعوني الى السكوت فالعواطف تأمرني أن أذيع على رءوس الاشهاد ما تركه وعرفانى الجميل »

وكان كورفيزار يوم ألقى عليه الامبراطور نظرة الرضا شهيراً يشغل مكان الطبيب الاول في مستشفى الرحمة. والذي أعجبه منه بوجه خاص هو حسن التشخيص وبراعته التي لم يدانه فيها أحد



الدكتور كورفيزار

ثم جاء نابوليون مصر وسوريا فلم يفعل فيه الحر ولا تعب السفر بل احتملت بنيته الضعيفة كل هذا فوق ما كان معرضاً له من

العدوى بالطاعون لاختلاطه بالمرضى وملامسته لهم

وقد جرى جدال في احدى جلسات المجمع العلمي في مصر عن عدوى الطاعون بين الجنرال والطبيب دجنت فأبى هذا أن يوافق نابوليون على انكار العدوى وما كان نابوليون ينكرها عن جهل بل ابعاداً للخوف عن الجيش فصاح به من الغضب : « تلك هي مبادئكم أيها الاطباء والصيادلة تفضلون أن يموت جيش بأسره عن أن تضحوا بواحد منها »

وأحسن وصف له بعد رجوعه عن مصر هو ما كتبه عنه خادمه الذي أقام معه ١٥ سنة فقد ذكر أن الامبراطور كان أصفر نحيلا نحاسي اللون غائر العينين مكسوف الجبين قليل شعر الرأس الا أن جمال الزرقة فى عينيه كان يعكس عواطف نفسه الحساسة في قساوة وحنو وشدة ولين وكان فمه حسناً وأسنانه بيضاء سليمة وأنفه جميلا يوناني الشكل . أما رأسه فكان ضخماً محيطه ٢٢ بوصة مسطحاً من الجانبين شديد التأثر والاحساس مما كان يضطره أن يضع في قبعته الجديدة قطناً ويكلف خادمه لبسها مراراً قبله حتى تلين ، صغير الاذنين ، قصير العنق ، ضيق الكتفين ، عريض الصدر على ندرة الشعر فيه ، مفتول الساعدين والساقين ، قامته خمس أقدام وبوصتان

وقد ذهب نحوله فيما بعد دون أن يذهب بجماله بل كان ملكا أجمل منه قنصلا كأن الهموم والاطماع والشواغل التي أنهكت بونابرت قد تضاءلت وارتدت أمام نابوليون بعد أن بسم له الزمان وخضعت له دول الارض وشعوبها

الفصل الخامس

١٨ برومير

ان تفاصيل هذا النهار المشهور قد عرفت لـكثرة من كتب عنها ولـكن ثمة أشياء لم تعرف وهي تمثل لنا الفصل الاول من هذه الرواية . وقد ذكر بعضها المستشار كوندر قال : رأيته في التويلري فوق جواده الاشهب وهو يقصد الى سان كلود وكان وجهه طويلا نحيلا أصفر وشعره الاملس مقصوصاً الى فوق الاذن وعلى رأسه قبعة صغيرة . وذكر بعضها الآخر البر فاندال قال : خرج بونابرت من موكبه ودخل بين الجماهير وحده مكشوف الرأس ودنا من المنبر فعلا الضجيج والصياح : ليسقط الدكتاتور . ليسقط الظالم ونهض الجمع بأسره مظهراً غضبه على الرجل الوقح الذي جاء بسلاحه وحذائه يخرق حرمة ذلك المعهد كأنه قيصر الرومان

وفي أسرع من لمح البصر كانت الجماهير قد التفت من حول الجنرال هذا يشتم وهذا يتوعد وهذا يمد يده اليه ويمسكه من عنقه ويهزه بعنف فلم يقو هذا الرجل العصبي المزاج الشديد التأثر الذي كان يتجافى الجمهور وينفر من الازدحام على احتمال هـذا الثقل الذي انحط عليه ، لم يقو على ملامسة هذه الايدي المتوحشة واستنشاق هذه الانفاس الخارجة بالشتيمة من أفواههم والهواء الساخن المختلط

بتلك الانقباض فأحس بضعف وانقباض صدر وغشاوة بصر وأغمي عليه

كم من الزمن شغلت غيبوبته ؟ كان من عاده الغضب عند نابوليون أن يرجع اليه التوازن المفقود شيئاً فشيئاً فلما عاد وعيه أخذ يشتم المجمع ويشكو من اعتداء الناس عليه ويصرخ « يا للقتلة » وهو على جواده بين جيئة وذهاب وقد خدش وجهه المصفر بأظافره من الغضب حتى سال الدم وذاع أن نابوليون مجروح في جبينه وبفضل هـذا الجرح رجحت في جانبه كفة الميزان فكفى أخاه لوسيان أن يدل الجماهير عليه وعلى الدم المتجمد على وجهه بصوت وحركات لا يفرق فيها عن أبرع الممثلين ليصل الى قلوبهم ويخفف من حدتهم وغضبهم

ولم تفده « القنصلية » في تحسين صحته بل ظل كالاول هزيلا أصفر ولـكن نظره الساحر كان يدل على فـكرة وقادة وتبصر غريب وقد وصفه أحد الانكليز بقوله : كانت ملامحه تدل على السوداء والتفكير العميق . وقلما كانت تعرف شفتاه الجميلتان الابتسام أما عيناه فكانتا متقدتين كجذوة من نار وصوته عميقاً كأنه خارج من القبور

وقال فيه الشاعر روجر : ان اصفراره كان اصفرار الموت. واتفاق الجميع على ذكر اصفراره دليل على ما كان عليه من المزاج الصفراوي فهو يدخل في تلك الفئة التي يسميها اليوم الاستاذ جلبر الاسرة الصفراوية

واذا كان التشخيص على ما يقدمه لنا الوصف شيئاً لا يخلو من الجسارة فانه هنا سهل لاتفاق الكل على نقطة معينة ولا سيما لان ذلك كان قبل الزمن الذي ارتقى فيه نابوليون ذروة المجد فصار في عين الامم كما قال فريدريك ماسون ابعد من ان تناله عاديات الزمن والحياة والشيخوخة

قال الشاعر الفرد ده ڤيني : بونابرت الرجل ونابوليون الوظيفة الاول يلبس قبعة والثاني تاجاً

ولكن هذا التحول الذي رافقه في الادوار الاولى من حياته سيتبدل مع الزمن فينتفخ الوجه والبدن ويخف شعر الرأس ويحول اسوداده ويصير كما قال عنه أحد التجار الالمان وقد التقى به في جزيرة البا : « اني عرفت هذا الرجل قديماً فلما رأيته اليوم كدت لا اعرفه . نعم انه لم يعد ذلك الرجل اذا نظرنا اليه من الوجهة الطبية » . وهذا ما سنظهره في الفصول الا تية

الفصل السادس

اجتماع نابوليون بكورفيزار

ان اجتياز جبل سان برنارد سنة ١٨٠٠ كان حادثاً عظيماً في التاريخ ولا نحاول هنا اعادة ما قيل ولا نقل المعروف عن كتب التاريخ بل نتلمس الحقيقة كعادتنا في مظانها الحقيرة الصادقة فنروي للقراء ما عثرنا عليه مما لا يزال أكثره مجهولا. فقد جاء في مذكرات الدليل الذي رافق البطل في هذه الحملة ما يأتي: الفرق عظيم بين الجنرال فيكتور والقنصل فالاول كان شديداً عاتياً قليل الصبر لم أجد في رفقته الا الخوف فكلما عثر بغلي تحته كان «يهوّل» عليّ بالكرباج أو بالسيف على أنه كان جميل الطلعة حسن الهندام أما بونابرت فكان هزيلا شاحباً وبياض عينيه كقشرة الليمون (ملاحظة خليقة بطبيب) وكان قليل الكلام حزين النفس يكثر من التلفت وراءه ليتحقق من تقدم الجيش الزاحف

وذكر انكليزي رآه بعد سنتين من هذا التاريخ وهو يستعرض الجيش في التويلري ان ملامحه كانت تدل على التعب والسوداء قال: «ما كادت المركبات تصطف في اماكنها وتقف فرق الخيالة والمشاة أمام القصر حتى اطلق المدفع فشاهدنا رجلا صغيراً يقفز بخفة لا مثيل لها فوق جواد ابيض وينطلق مسرعاً بين الصفوف

يتبعه القواد والضباط . اما الجواد فكان اسمه مارانكو واما الراكب فنابوليون بونابرت القنصل الاول



الامبراطورة ماري لويز

وكان مرتدياً سترة زرقاء ذات حواش بيضاء ولابساً قبعة صغيرة عليها شريط مثلث الالوان

أما وجهه فلا ريشة المصور ولا قلم الكاتب يقدران ان يأتيا

بالحقيقة عنه فان لونه كان اصفر قاتماً وعيناه غائرتين في رأسه ولهما زرقة ضاربة الى السواد ونظر احدّ من السهام

وكانت شفتاه جميلتين تعلوهما من آن لآن ابتسامة حلوة ساحرة الا انها نادرة وكثيراً ما خلفتها عبوسة مخيفة لادنى سبب لان نابوليون لم يكن يطيق المعارضة

وكان يطعن في الاطباء ويستهزىء بهم الى ان اصابه داء في صدره فشفاه كورفيزار وجعله يغير اعتقاده فصار كما يقول هو نفسه يثق بالطبيب دون الطب وهذه عبارة لا معنى لها لان الطبيب هو بطبه قبل كل شيء ولكنها من تناقضات نابوليون الكثيرة

ومن تناقضاته أيضاً في مسائل الطب والفسيولوجيا تعريفه الموت بأنه فقدان الارادة وكان يقدم برهاناً على صحة رأيه الحادثة الآتية :-

جمح به مرة جواد المركبة في سان كلود فوقع منها على صخر وأصابت الصدمة معدته فآلمته كثيراً فلما كان الغد وقد استرجع قواه قال لمن حوله : « امس اتممت اختباري عن الارادة . فان الضربة التي أصابتني في معدتي كانت شديدة حتى خيل لي ان الحياة أخذت تفارقني ولكن بقي لي متسع من الوقت لافكر وأقول لا أريد أن اموت ففزت وبقيت حياً ولو كان سواي في مكاني لما عاش بعدها »

وسواء أكان صادقاً فيما رواه عن نفسه ام غير صادق فانه لم يظهر مثل هذه الشجاعة في احوال غيرها كانت تتطلبها فقد قيل انه كان يتنزه مرة في النهر مع بعض حاشيته فانقلب بهم القارب وسقط الجنرال برنيار في الماء فأخذ منه الرعب مأخذه واغمي عليه ولم يُذع

.هذا النبأ بل بقي سراً من اسرار الدولة

وكان في بروكسل سنة ١٨٠٣ يوم اصابته علة الصدر وبصق دماً فبعث في الحال من جاءه بكورفيزار الذي لم تخف على ذكائه اسباب الداء ولكنه أبى أن يخيف مريضه بذكر تشخيصه واكتفى بالقول انه فساد في الدم يمكن اخراجه بوضع محرقة على الصدر . وقد استفاد نابوليون من علاج الطبيب فوقف بصق الدم وخف السعال وزال ضيق الصدر فصار كورفيزار منذ ذلك الحين طبيبه الخاص وموضع ثقته المغمور بالمكافآت

وقد احجم كثيراً قبل دعوة كورفيزار ولولا الحاح كاتم سره لما فعل وقد قص هذا الاخير كيف تم ذلك فانه كان في مالميزون يشتغل الى جانب بونابرت فلاحظ غير مرة ان سيده كان يصفر فجأة عند انتصاف الليل وينحني على الكرسي ويفك ازرار صدرته ويتنهد تنهداً أليماً فيقوم ويرافقه الى غرفة النوم وهو مستند الى ذراعه . وقد مضى ستة أشهر على هذه الحالة وكلما فاتح سكرتيره بأمر التداوي ومن يختار طبيباً كان الجواب كورفيزار

ومن تأبين ديوآرن الذي لفظه على قبر زميله نرى ان الصفات التي فتحت لكورفيزار طريقاً الى قلب نابوليون كانت سرعة الخاطر والتدقيق وحرية الفكر وقد استطاع الطبيب ان يحفظ كرامته امام الرجل الذي لم يترك لاحد كرامته . وقد قيل انه وهو سائر الى مالميزون كان يردد في نفسه: «لا اعلم اي ربح اجنيه من هذه الزيارة ولكني متأكد انني سأخسر حريتي» . ولقد اخطأ ظنه فانه لم يكن

أبداً عبداً لذلك السيد الذي كان يسامحه على الكثير اكراماً لعلمه واخلاصه

والذي وافق نابوليون بوجه خاص ان كورفيزار كان يتكل على الطبيعة اكثر مما يتكل على الادوية ولا سيما لان الطب في نظر نابوليون كان علم احتياط لا علم تدقيق وكان يعترف بفائدة الهيجين اي علم الصحة وله فيه آراء خاصة

وكان يستيقظ مبكراً فيأمر حالا بتجديد هواء الغرفة ثم يتناول كأساً من الشاي او ماء زهر الليمون ويسرع بالحلاقة لنفسه وقد اضطر الى هذه العادة لانه لم يجد بين المزينين من يستطيع أن يقوم بهذه المهمة نظراً لما كان عليه من ضيق الصدر وقلة الصبر فكانت تساوره حركات عصبية لا يأمن معها المزين من ان يجرحه مراراً . ومن الغريب انه لم يكن يستعمل الإصابوناً انكليزياً وموسى انكليزية ويتعجب من امكان الحلاقة بغيرها . وقد اشتهر بالصرامة في معاقبة التهريب حتى انه كان يحرق كل سنة ما يساوي الالوف من البضائع الانكليزية المهربة ولكنه رضي لنفسه بالشذوذ حتى انه كان يدفع ثمن الموسى جنيهين وهي تساوي ربع القيمة

وكان مملوكه رستم يمسك له المرآة أثناء الحلاقة حتى اذا انتهى وآن اوان الاستحمام بالماء الساخن لبث في الحمام زمناً طويلا يسمع في خلاله من سكرتيره قراءة الجرائد والتلغرافات وقد يطول الوقت نحو الساعتين غير مبال باذن الطبيب فاتحاً حنفية الماء الساخن الى ان يتصاعد البخار ويملأ الغرفة ويحول دون القراءة فيضطر السكرتير

الى فتح الباب . وكان ولعه بالاستحمام شديداً الى درجة انه يستيقظ أحياناً في نصف الليل فينهض حالا الى الماء ومن أجل هذا كان يعد له الحمام اين ذهب دون نظر للمكان ولا الزمان . ولما ولدت ماري لويز جاءته البشرى وهو في الحمام

وكان من نتائج هذه المغاطس الساخنة المتكررة أن سمن بدنه شيئاً فشيئاً ولكن ذلك لم يمنعه عن المثابرة عليها لاعتقاده انها تخفف عنه عسر البول الذي شعر به لاول مرة في حملة ايطاليا وما برح يزداد حتى اشتدت عليه النوبة سنة ١٨١٢ . كما انها تقيه شر الامساك المزمن الذي رافقه منذ الصغر

وبعد خروجه من الماء كان يفرك بدنه بفرشاة قاسية ثم يسكب عليه ماء الكولونيا بغزارة وقد استفاد عادة الفرك هذه من الشرق ولها عنده منافع جلى

وكان يدعي ان السر في صحته ومقدرته على احتمال التعب هو افراطه من آن الى آن في عكس ما تعود عليه فكان مثلا يستريح ٢٤ ساعة أو يمشي ستين ميلا أو يركض على جواده طول النهار كما كان يفعل في جزيرة الب كأن التعب ضروري لبنيته ولهذا كان يرجع من فتوحاته وحروبه وهو أوفر سمناً وأقوى صحة

ولا يخفى على الناقد البصير ما في قوله هذا من الحقيقة فان الرياضة البدنية تساعد على افراز الغدد الجلدية واخراج الفضلات والسموم ولا سيما في الاجسام المصابة بالارتريتسم .ذلك ما كان يحمل نابوليون على القول وهو في جزيرة القديسة هيلانة قبل موته بثلاثة

أشهر : « آه لو كان في الامكان أن أعرق وأن ينفتح جرحي فشفاني من وراء ذلك »

هذه الرياضة وهذا التعب جعلاه يتمتع بالصحة والعافيـة أربع سنين متعاقبة أي من سنة ١٨٠٢ الى ١٨٠٦ كما يظهر من رسائله الخاصة

الفصل السابع

من سنة ١٨٠٣ الى ١٨١٠

في ١٢ نوفمبر سنة ١٨٠٣ كان في بولونيا البحرية Boulogne sur mer فكتب الى زميله كامباسرس Cambaceres انه قضى ليله في الميناء في مركبه أو فوق جواده ولم يزعجه أبداً ابتلال جسمه ساعات متوالية

وفي ١٢ اكتوبر سنة ١٨٠٥ كتب الى جوزفين من اوكسبورغ انه بخير على الرغم من فساد الجو واضطراره الى تغيير ثيابه مرتين في اليوم لكثرة المطر

ثم كتب لها بعد أيام انه أصيب بانحراف يسير لوجوده طول النهار في الماء ولكن راحة يومه أنسته كل عناء

وفي ٣ ديسمبر من تلك السنة كتب يخبرها انه قهر الجيوش النمسوية والروسية بقيادة الامبراطورين وقد تعب قليلا لاقامته تحت المضارب ثماني ليال باردة ومني برمد بسيط عالجه بماء الورد الفاتر فشفي منه بعد ثلاثة أيام

وفي سنة ١٨٠٦ كان السمن قد أخذ سبيلا الى بدنه فخفت مقدرته على احتمال حياة التعب . ففي ٢٧ سبتمبر بينما كان في مايانس مع الامبراطورة وتاليران أصابه عند الوداع ضعف فجائي فضم بذراعيه

جوزفين وتاليران معاً وأخذ يخاطبهما بكلام ملؤه حنو حتى أبكاهما وما كان الدمع ليسكن نابوليون بل انتهى بنوبة عصبية شديدة من تشنج وقيء حتى اذا ثاب الى نفسه أفلت منها وأمر بالرحيل



نابوليون الامبراطور

وفي ١٣ اكتوبر ارسل اليها يقول : لقد تحملت في هذه السفرة معاً بدا أقطع كل يوم عشرين ميلا راكباً . أنام الساعة الثامنة وانهض نصف الليل فافتكر انك في هذه الساعة لا تزالين مستيقظة

وفي عد اليوم الذي خط فيه هـذه الكلمات جرت موقعة ياتة الشهيرة فكتب اليها وكانت في مايانس مع الملكة هورتنس والاميرة ستفاني : لقد انتصرت انتصاراً باهراً على الروسيان ياصديقتي وكاد الملك والملكة يقعان في أسري ثم اعقب هذه الرسالة في اليوم التالي بمثلها : لقد صدق تدبيري فقهر جيش العدو كل القهر ولم يبق الا أن أقول انني بخير . وان التعب والسهر ونوم الخيام قد اكسبني سمناً

وفي ٢٨ نوفمبر أخلى الروس فرسوفيا فدخلها مورا وأقام هو في بوزن أو بولرا وكما يسميها الطليان اليوم ومنها كتب يخبر جوزفين أنه حضر ليلة راقصة كان فيها كثير من النساء الغنيات الجميلات وكن لا يحسن اللبس على الرغم من ان الازياء باريزية

وهكذا لم يكن يمضي يوم دون أن يخط الى زوجته قبل النوم ولو سطراً يسركها به في تأثراته . وقد يوجز ما أمكن الايجاز . ولـكن كلماته كانت تتقد شوقاً وغراماً كما ترى من الرسالة الآتية : « كنت في المرقص . ليلة ماطرة . صحتي حسنة . أحبك وأذوب شوقاً اليك . كل نساء بولونيا فرنسويات ولـكن في نظري لا يوجد الا امرأة واحدة . أتعرفينها . ما أطول الليالي بعيداً عنك . أرجو أن أدعوك الى موافاتي عند سنوح الفرصة . ان حرارة كلماتك أرتني انك لا تعرفين الموانع وما تريده المرأة يكون . أما أنا فاني عبد ومولاي لا يعرف الرحمة وهو طبيعة الاشياء »

وكان حبه لجوزفين قد تجدد كأنه في الزمن الاول وكل رسائله تنم عن حالة نفسية حسنة وهي دليل على الصحة كما كان يقول:



الامبراطورة جوزفين

أنا بخير وعمري ما نعمت بالصحة مثل الآن

وفي ١٨ يوليو كتب يقول : انه وصل الى درسد بصحة تامة على الرغم من بقائه في المركبة مائة ساعة دون أن يتحرك

وقد روى الكونت سيكور في مذكراته ان نابوليون ابتدأ يشعر بآلام المعدة وهو في ڤرسوفيا من سنة ١٨٠٦ وكان يقول انه سيموت كأبيه . الا ان هذه الغمامة السوداء سرعان ما تبددت لان رسائله لتلك العهد تشير الى شيء من هذا

وفي ٩ اكتوبر سنة ١٨٠٨ أرسل اليها يقول : « انه شهد الرقص في ڤيمار وقد رقص الامبراطور اسكندر أما هو فقد بلغ حد الاربعين . ذلك لانه أخذ منذ ذلك الحين يشعر بالكبر المبكر فانتفخ وجهه وخفت حدة بصره وتجعد جبينه واستدارت ذقنه وسمن بدنه وثقلت حركاته وفقد سرعة الخاطر وتلك الطلاقة في اللسان

وفي ١٨ اكتوبر عاد الى سان كلود فلم يمكث طويلا لقرب حملة أسبانيا والنمسا . وبعد شهر جرح في راتيسبون فآساه الجراح ايڤان وكان الالم شديداً لانه لم يخلع حذاءه منذ ثلاثة أيام فتورمت رجله تحت الضغط وكان قليل الصبر فاعتلى جواده ورجله المجروحة لا تزال في يد الجراح ثم سار بين الجنود يريهم نفسه ليطمئنوا فقابلوه بالتصفيق والهتاف

ووصل الخبر مجسما الى زوجته فكتب لها مطمئناً ان الرصاصة أصابته دون ان تجرح فلا سبيل الى انشغال بالها وكتب مثل ذلك الى ابنة عمه ملكة وستفاليا



الدكتور ايفان في ملبسه الرسمي

وبعد افتتاحه راتيسبون بأسابيع تعرض لخطر جديد فان رصاصة أصابته في رجله فخرقت حذاءه حتى الجلد وكانت سبب تلك الكلمة التي قالها له أحد قواده : انسحب من هنا والا أمرت رجالي بحملك . وأصابت رصاصة أخرى فخذ جواده فصاحوا جميعهم : ان لم ينسحب الامبراطور حالا فاننا نضع السلاح ونكف عن القتال.

وكان قبل ذلك قد احسّ وهو في شنبرون باعتلال فأشاروا عليه أن يرى الدكتور فرانك الشهير . وقد روى نابوليون عن نفسه سنة ١٨١٦ حكاية هذه الاستشارة الطبية ومنها تتجلى للقارىء حالته الصحية سنة ١٨٠٩ وتعطيه دليلا صادقاً على مزاجه :

ان فرانك حقاً لماهر وقد عرفت هـذا آخر إقامتي في ڤينا سنة ١٨٠٩ فقد ظهر طفح جلدي في رقبتي أقلق أتباعي فألحوا عليّ أن أقابل طبيباً مشهوراً هو فرانك فلما جاء اظهر اهتماماً كبيراً وأشار باستعمال عقاقير وأدوية واتباع معالجة لا نهاية لهـا فدعوت كورڤيزار وكان ذلك كافياً ليحيي الآمال الميتة . كنت مريضاً ملازماً فراشي وقد ضاع رشدي واضطرب الجميع من حولي وصار كل يرسم خطته . فأسرع كورڤيزار بالمجيء وهو يظن أنني أحتضر فرآني استعرض الجيش . ولما قابلته اخذت اضحك للتعجب الشديد البادي على محياه وقلت له أي كورڤيزار ، ما عندك من الاخبار ؟ ماذا يقال في باريس ؟ أتدري أنهم يعتقدون هنا انني في خطر الموت . بي طفح جلدي خفيف وصداع يزعم الدكتور فرانك أنه يحتاج الى معالجة طويلة وصارمة فما قولك ؟ وكنت قد نزعت رباط رقبتي

وأريته موضع الالم فقال : آه يا مولاي تدعوني من بعيد لامر تافه كهذا لا تمضي اربعة أيام حتى يزول أثره . وكان كما قال فقد وضع على الجلد Vésicataise وكوى ذلك . وقبل ان يترك كورفيزار فينا ذهب لزيارة فرانك وشكره بل لامه لانه كان الباعث على هذه السفرة المتعبة وكان رجوعه لباريس سبباً لازالة قلق البعض وآماله البعض الآخر

وقد زعم البعض وفيهم البرنس نابوليون حفيد الامبراطور أن البثور التي ظهرت في رقبة عمه ناتجة عن احتكاك الجلد بنسيج السترة القاسي وظن بعضهم أن معالجتها هي التي سببت له ألم المعدة وانه يكفي تهييج الجلد وارجاعها لتذهب الاعراض الخفيفة . ولكن ذهاب الاعراض ليس دليلا على ذهاب العلة ولهذا كان شفاء نابوليون شفاء ظاهراً . هل يستنتج من هذا أن كورفيزار أخطأ في معالجته أو أضره كما أشاع البعض بتعجيل سير الداء ؟ ان الدكتور فرانك ابن فرانك الشهير ادعى ذلك وقال أنه شاهد غير مرة بين سكان لومبارديا من أصيب بسرطان في المعدة بعد التداوي من العلل الجلدية فيكون الامبراطور بدعوته كورفيزار ليقوم مقام الطبيب الالماني كالمستجير من الرمضاء بالنار . ولا يخفى ما في هذا من المبالغة ولسنا هنا في مقام الدفاع عن كورفيزار ولكن ما لا ريب فيه أنه كان أعلم من زميله الغريب بمزاج مريضه الشهير واستعداده وحالته الصحية ومن المستحيل ان تكون معالجته قدمت أو أخرت في سير علة مجهولة في طبيعتها وفي أعراضها

الفصل الثامن

عام الطلاق

ويمكننا أن نسميه أيضا عام الزواج الثاني . ففي سنة ١٨١٠ طلق نابوليون جوزفين وتزوج من ابنة امبراطور النمسا . ولم يكن هذا الطلاق ابن ساعته بل ترجع فكرته الى سنة ١٨٠٤ لان حاشية نابوليون وأتباعه كانت تلح عليه منذ ذلك الحين أن ينفصل عن زوجته العاقر وجاء موت ابن الملكة هورتنس ولويس ملك هولاندا فنزع بقية الامل من فؤاد الامبراطور وجعله أقرب الى تحقيق فكرة الطلاق من ذي قبل.

ولم تنجح وسائل الطب وعناية كورفيزار في تغيير الحالة . وذهبت الامبراطورة للاستحمام في اكس فلم تر ادنى فائدة وكانت قبل أيام حملة مصر قد ذهبت الى بلومبيار لذلك السبب فكان زوجها يمازحها معدداً ضياع الوقت وخيبة أمل من يتطلب الذرية من المياه المعدنية

ولم يكن هذا المزاح حلواً على قلب جوزفين ولهذا كان يتجافاه في الساعات العصيبة ولا سيما عندما كان يتألم فلم يكن يعرف حينئذ إلا كلمات الحنو والعناق والتقبيل أما هي فكانت من جراء ذلك كريشة في مهب الريح لا تعرف أين تستقر يتنازعها الامل والخوف وكانت تقول لاصحابها أنها لا تصدق بهذه الظواهر بل ترى أن

الامبراطور يحاول بذلك حملها على التعب منه والملل والكراهة

وكانت الايام تؤيد مخاوفها لان الامبراطور أخذ يظهر برودة وجفاء وهجراً ويخاصمها لادنى سبب فقد عاد يوماً من فينا واتفق مع جوزفين أن يلتقيا في فونتبلو لجاءها قبل الميعاد بساعات وكان هذا التأخر منها سبباً لتعنيفها . والذي أماط عن عينيها الحجاب وأراها حقيقة ما هي اليه صائرة هو سد الطريق أو بالاحرى أمره بقفل الباب الواصل بين حجرتيهما . وفي ٣٠ نوفمبر (١٨٠٩) كانت الساعة الهائلة اذ أخبرها بعد العشاء بعزمه الاكيد على الطلاق فكان ما كان من بكاء وندب وغيبوبة وغيرها وفي ١٤ ديسمبر أمضيا عقد الطلاق وفي ٧ فبراير عقد له في فينا على ماري لويز

وكان الاتفاق أن يجتمع العروسان في كومبيان وأن يرافق الامبراطور في هذا الموعد كل حاشيته ورجال قصره فكان الحرس منتظراً والمركبات معدة وكل في موقفه واذا بالخبر ينتشر أن الامبراطور قد اختفى وذلك لأن صبر العاشق قد عيل فلم يطق الانتظار فخرج من باب الخدم وركب عربة بسيطة يصحبه فقط مورا وسار الى أن وصل الى مقربة من سواسون فوقف بجانب كنيسة التوبة حتى اذا مرت عربة الامبراطورة خف اليها وفتح بابها بشدة ودخل العربة وجلس مكان الملكة كارولين بدون خطاب ولا جواب وقبّل الامبراطورة فنال هذه الدهشة ولكنها رضيت عنه ومالت اليه

ويقال ان الذي جعل الامبراطورة تحوز رضا أخواته

الامبراطور هو كونها أدنى منهن جمالا فكانت على الرغم من شعرها الاشقر الغزير ووجهها المشرق وألحاظها اللطيفة تظهر كأن عمرها ٣٠ سنة نظراً لامتلاء فخذيها وضخامة صدرها . ولم تكن شفتاها السميكتان لتزيد محاسن وجهها

وقد تحققت آمال الامبراطور بأسرع وقت فحملت ماري لويز في سبتمبر سنة ١٨١٠ وبلغ مجلس السفا بذلك فأقيمت الصلاة في الكنائس واشترك الشعراء والمصورن والموسيقيون في تخليد تلك الساعة المباركة

ولما أحست بالمخاض (١٩ مارس) كان الامبراطور في الحمام فقيل له ان المولد يرى صعوبة في توليدها وربما اضطر الى تغيير مركز الجنين أو استعمال الحديد لاخراجه فقال لا تهتموا برغبتي الخاصة أن يكون لي ولد وخلصوا الام أولا . وقد استعمل ديبوا الحديد فأخرج الولد في حالة الاختناق وعالجه حتى أفاق وصرخ فاطمأن الجميع

وجرت بعد أشهر حفلة التنصير فكان مشهد لم يسبق مثله في العظمة وقبل أن تنتهي الاعياد سافرت أم الامبراطور في حاشية كبيرة الى اكس لاسابل لمعالجة الصداع ثم تبعتها ابنتها اليزا ولكنها لم تطل المكث في اكس بل سارت منها الى سبا حسب نصيحة اطبائها . وذهب أخوها لويس الى كراس للتداوي من آلامه العصبية والشلل المصاب به بعد ان طرد طبيبه وتعلق بأحد الدجالين

وكان لويس بونابرت كسائر الناس المصابين بالارترتيسم معرضاً للصلع ومن نتائج الصلع الزكام والنزلات الصدرية ولهذا أوصى في

باريس بشعر مستعار يقيه مؤثرات الهواء ثم اطلع في احدى الجرائد على أعلان لمرهم نباتي ينمي الشعر ويقويه فسارع الى شرائه

وكان وهو علي عرش هولاندا قد دعا من برلين الدكتور هوفيون والظاهر أن علاجه لم يفلح فسار يهيم من بلد الى بلد في استرجاع صحته وعلى الرغم من شقائه هذا فقد كان يعتبر نفسه سعيداً لبعده عن الاعمال

أما نابوليون فقد كان في هذه السنة ١٨١١ يستعد لحملة روسيا وقد عزم على قضاء فصل الصيف في احدى البلدان المائية ولكن الاحوال ما كتبه . وكان فيما مضى عندما دعا كورفيزار الى فينا قد سمع الجنرال كلاباريد يثني على حمامات اكس ويغرق في مدحها فدفع ذلك الامبراطور الى أن يطلب من كورفيزار رسالة بهذا الموضوع يعرضها على جامعة مونبلييه ولا سيما لان اكس قريبة منها . فأيدت الجامعة قول الجنرال وعقد الامبراطور النية على تجربته هذه المياه بل ذهب الى أبعد من ذلك فافتكر في انشاء مصح عسكري فيها لولا أحوال السياسة التي غيرت كل مشاريعه لان الاقدار كانت تدعوه الى ناحية أخرى

الفصل التاسع

الداء الخفي

من الكلام المأثور عن نابوليون وقد قاله لاول مرة في حرب ايطاليا : « ان الصحة ضرورية في الحرب ولا شيء في العالم يغني عنها » وقد مرت به أحوال وسنحت له فرص جعلته يرى في هذا القول شبه نبوءة . أجل لا نريد ان نبالغ في وصف الاثر الذي يتركه هذا العامل العظيم عامل الصحة في تصرفات الانسان ولكن ما لا ريب فيه أن له كما للظواهر الجوية والحوادث الطارئة يداً في تغيير الخطط التي يرسمها الفكر الشرير وعرقلة المشاريع التي تمعن في تدبيرها الذكاء والوقت مما ينطبق عليه قول الشاعر :

تجري الرياح بما لا تشتهي السفن

ولم تكن حملة سنة ١٨١٢ التي نظر اليها البعض بعين الاعجاب والاكبار كما رآها البعض الآخر خسارة لا تصدق الا واحده من هذه الحوادث التي يظهر ان الاقدار تصرفها قبل فكرة الانسان

والاقدار كلمة نأتي بها لتخفيف مسئولية الانسان وستر جهلنا في تفسير ما لا يفسر فاذا أردنا ان نكون عادلين في الحكم علينا ان نبحث لنحدد تلك المسئولية

اختلف المؤرخون في انتقاد اعمال نابوليون وقدرها وكثيرون

من أعجب بحملة ١٧٩٦ وحملة ١٨١٤ ورأى مواطن الضعف في سواها كحملة ١٨٠٥ و٦ و٧ و ٨ وعلى رأي هؤلاء أن الامبراطور



السكيماوي ربوليه

لم يعرف أن يستفيد من انتصاره في واكرام وكان دون المنتظر منه في روسيا الى ان سقط آخر الامر سقوطاً لا نهوض بعده

ماذا أصاب هذا النبوع الحربي الذي شهد به الاعداء حتى كانت تغشى بلورته الصافية من وقت الى آخر غمامة سوداء تحجب بريقه وتستر نوره ؟ يقال ان هناك داءً كامناً كان يحاول نابوليون بكل

قواه ان يبقيه خفياً على من حوله وقد شبهوه بنوع من الغيبوبة أو نوبة فجائيــة تنتاب العقل والبدن فيصيبهما الضعف والخمول وألم حاد قد يأتي في أهم ساعات العمل وأشــد محتدم الجلاد فيذهب برشد نابوليون ويظلم ذهنه فيترك المقادير تجري في أعنتها دون ان يملك لها زماماً . هكذا يفسر المارشال ولسلي فشل نابوليون في روسيا . نعم ان الدوسنطاريا كانت تفتك بالالوف من جنوده وان كثيراً من خيله ضاع بين البرد والمطر حتى انه قبل وصوله الى فلنا اضطر أن يترك وراءه مائة مدفع وخمسين عربة نقل . ولــكن علام التردد في أول الحملة وتضييع الوقت بالتباطؤ وهو المتعود الاقدام والسرعة . وما معنى هــذه الراحة الطويلة في فلنــا ثم في فستبسك لولا حدوث انحطاط في قواه العقلية والبدنية ونزول الارادة عن مستواها العالي نزولا لم يخف على الــكثيرين حوله ؟

قد يكون العامل الاكبر إجهاده العقل إجهاداً هائلا بين عمل متصل وقلق متعب ولــكن هذا القول يحتاج الى دليل فان شهادة من رافقوه في هذه الحملة المشئومة لا تؤيده اقل تأييد بل تثبت ان الامبراطور لم يعره تغير في عزيمته ونشاطه ولا في حدة ذكائه عما كان عليه في حروبه السابقة. قال الجراح لاداي : « ان الامبراطور كان يهتم بكل شيء ولا تخفى عليه خافية » ولــكن من يقرأ متمعناً يلمح خلال السطور شيئاً جديداً فقد جاء في كلام لاداي ما يأتي :
« ان الذي كان يحتمل حر مصر ويجوب قفارها المحرقة وهو ضاحك ويترك عربته فارغة تسير على الرمل في خدمة برتوله ومونج

دون ان يركبها البتة والذي كان في اسبانيا يدهش حتى الاسبانيين بسرعة تنقله ومقاومته للتعب كان يشكو حينئذ من الظواهر الجوية



الجنرال كونت دي سيجور

ويعيش في مركبته او يقضي الساعات في السرير وهو غير لابس »

أما قواده المخلصون فلا يريدون ان يصدقوا انه قصر لحظة في القيام بمهمته الخارقة قدرة البشر . قال الجنرال راب : كانت

صحة الامبراطور فوق التصور فكان يحيط بكل شيء ويسهر على كل شيء ويكفي لكل شيء . وقال ياوره الجنرال كوركو : « ان صحة الامبراطور في ذلك الحين كانت على غاية ما يرام وكان على الرغم من كثرة الاشغال يجد متسعاً لركوب الخيل والصيد ساعات متتابعة ولقد اظهر في حملة روسيا من العزيمة والنشاط والمقدرة مثل ما اظهر قبل وبعد »

وقال ايضاً : « يصورون لنا الامبراطور في قلنا خلواً من الحماسة والارادة وصدق الرأي . كيف يكون ذلك وقد رأيناه منذ الساعة الاولى يهدم خطط الروس ويقطع جيشهم شطرين ويقهرهم على ترك مواقفهم ومخازنهم فيتسلم منهم ليتانيا بدون حرب . وكذلك في فستبسك فقد ادعى الكونت سيكور ان الخمول كان مستولياً على الامبراطور ولكن اين هذا من الحقيقة ؟ لقد اقبل الروس لمحاربته وهذا ما كان يريد . ظنوه آتياً بالجيش عن يمينهم فجاز بأسرع من البرق دنيبر وحمل على ميسرتهم »

اما كلام سيكور الذي اشار اليه الجنرال كوركو فهو : « لم تعد البنية القوية تساعد هذا النابغة كسابق عهدها وقد تعوّد منذ صباه الاستحمام لمغالبته ألماً خفياً لا يريد أن يعرفه احد . وقد اصابه عسر في البول منذ ليلة المعركة « موسكو » فلم يخلص منه الا ثاني يوم دخوله كرملين . وقد انبأني ابي والجراح وكاتم سره ان هذا الداء يلازمه منذ صباه

وروى الدكتور ايفان ان هذا الالم كان يحس به نابوليون منذ

سنة ١٧٩٦ وكان يعالجه بالماء الساخن فاذا لم يجد مغطساً أمامه أنزل في برميل . والمظنون أن هذا الالم ناتج عن التهاب في عنق المثانة أو



الجنرال كوركو

عن حصوة كلوية . وقد ذهب بعضهم الى أن نابوليون وهو في سنت هيلانه اعترف في احدى نوبه بأصل الداء وان الاطباء نسبوه يومئذ الى جهل الشبيبة على أنه كان متزوجاً وعلى ثقة من نفسه

والى القارىء بعض التفاصيل مأخوذة عن السجلات الرسمية كما كتبها الدكتور ماستيفيه طبيب الامبراطور لذلك العهد فانها تلقي شعاعاً على هذه الحوادث الغامضة :

« ان عسر البول الذي أحس به الامبراطور لم يذهب تماماً الا في اليوم الثاني بعد دخول موسكو . وقد دعاني اليه عند الصباح وأراني اناء مملوءا بولا وقال انه مستريح بعد هذا البول الغزير ولكنه قلق لتراسب الموجود في الاناء الى ثلثه تقريباً فطمأنته بقرب انفراج الكرب فسألني كعادته ماذا يقال حولي . وكان سريره موضوعاً بحيث لايرى المدينة فأجبته ان حلقة من النار تحيط بكرملين فقال قد يكون من حماقة بعض الجنود الذين أشعلوا النار بالقرب من البيوت الخشبية . ثم حدق بنظره في السقف وسكت بضع دقائق واذا بوجهه قد تغير وبدت ملامحه في شكل هائل فدعا خادميه رستم وكونستان وترك سريره بسرعة فخلق ذقنه بيده ولبس ثيابه وهو صامت قليل الصبر حتى أنه رفس المملوك رستم ورماه على قفاه لانه أخطأ فقدم حذاءه الايسر قبل الايمن

وبقيت في مكاني ساعة أنتظر اشارة رأسه المعهودة لانصرف. فدخل عليه بعضهم وذهب الى الغرفة المجاورة »

الامضاء

ماستيفيه عضو الجمعية الملوكية

ويؤيد هذه الشهادة شهادة أخرى كتبها الجراح ايفان . وايفان من أصدقاء الامبراطور الحائزين كل ثقته حتى أنه وقع وحده



الدكتور ايفان يعالج جرح نابوليون في راتيسبون

عقد زواج كارولين ومورا . . وكانت جوزفين تستشيره دائماً قبل الذهاب للمياه المعدنية . فضلا عن ذلك فقد خدم في جيش ايطاليا خمس سنوات ورافق نابوليون في كل حروبه وكان عليه بعد المعركة أن يطلع الامبراطور على عدد الجرحى والقتلى وحالة المستشفيات النقالة وأهمية جراح الرؤساء والقواد فكان مركزه كمركز كورفيزار بل أسمى لحاجة الامبراطور اليه في كل المواقع وصحبته له كل يوم وكل ساعة . وهاك الشهادة :

كان الامبراطور سريع التأثر بالعوارض الجوية وكان من الضروري عنـده أن تظل وظائف الجلد سليمة لحفظ التوازن في صحته والا أصابه سعال وعسر بول . وفي ٥ سبتمبر سنة ١٨١٢ هبت ريح هوجاء وانتشر ضباب كثيف وسقط مطر غزير فظهرت فيه الاعراض بشدة اضطررت الى تسكينها بدواء ذهبوا في استحضاره بعيداً عن المعسكر ولم تذهب الاعراض والحمى وتهدأ حالته الا بعد أيام . ثم يقول في مكان آخر :

أخذ نابوليون يشعر بانحراف صحته منـذ السابع من شهر سبتمبر فكانت البداية صداعاً شديداً لم يمنعه مع ذلك من النهوض باكراً واعتـلاء صهوة جواده قبل ساعة الهجوم أي نحو الساعة الخامسة . وكان فطوره قليلا من الخمر المعتقة وغذاؤه خبزاً مبللا بالنبيذ

وفي ٨ منه قضى ليلته بين أنقاض البلدة المجاورة وفي الغد كان في موسكو فاحتل منزلا حديد البناء وجمع أعوانه من حوله ليلقي

أوامره كعادته واذا بصوته قد بح فجأة وامتنع عليه الكلام والاملاء فتناول قلماً وورقة وأخذ يرسم ما يحول بخاطره من خطط وأوامر



نابوليون فى فراشه في اثناء حملة روسيا فى سنة ١٨١٢

ويدفع الى من حوله من مساعديه وكتابه . وعلى الرغم من كثرة هؤلاء الاعوان فقد كانت المهمة شاقة لانهم كانوا يقفون حيارى عند

كل سطر من خطه قبل أن يصلوا الى حل رموزه وطلاسمه وكان كلما انتهى من تسطير امر يضرب بقبضة يده على الطاولة ليأخذوا ما تكدس حوله من هذه الاوراق.

قيل انه كان وهو في تلك الحالة التي يعاني فيها أثقال المخاوف والهموم وآلام الفكر والبدن ضعيفاً في ارادته متردداً في عزمه بعيداً عن القدرة والاقدام اللذين اتصف بهما ولكن هذا القول يحتاج الى إثبات ومن يقرأ شيئاً من تلك الاوامر لا يسعه الا الاعتراف بأنها صادرة عن ذهن صاف وخاطر سريع ونظر بعيد.

واستراح طويلا في موسكو فلم يغادرها الا في أصيل اليوم الثاني عشر من الشهر بعد أن اطلع على حالة الخسارة في الجيشين وحركات العدو والذخيرة وغير ذلك فكان حتى الساعة الاخيرة قابضاً على زمام الادارة والاحكام يدير بنفسه دفة الجيش ماشياً على قدميه ليلا ونهاراً لا يعرف الراحة الا مضطراً ولا ينام الا غراراً.

هذه هي الحقيقة فيما يختص بمرض نابوليون الذي جعله الكونت سيكور وغيره العامل الاكبر في انحدار الامبراطور وتقهقره

وقد تناول قلم تولستوي بالهزء من زعم أن نتيجة هذه المعركة كانت معلقة بزكام نابوليون فقال ان مخلص روسيا اذاً هو ذلك الخادم الذي نسي أن يقدم الى سيده حذاء لا يخترقه الماء كما قال من قبل فولتير مستهزئاً أيضاً : « ان مذبحة سان برتلمي كانت نتيجة الهضم في معدة شارل التاسع »

نعم أن حالة الانسان العقلية والبدنية تؤثر في تصرفاته ولكنها

لا تكفي وحدها للتعليل عما يعقبها من الحوادث وقد قال تولستوي ان نابوليون لم يأت في معركة موسكو أمراً يجلب له الضرر أو يقلل من نجاحه واذا كان بدا عليه السأم ثم تولاه اليأس فذلك بعد أن تألبت عليه العناصر والبشر جميعاً . وما عتم أن استرجع قواه الاولى عندما ابتعد عن روسيا بل لم يذكر التاريخ أنه أظهر في زمن من الازمان من النشاط والمقدرة ما أظهره في أواخر هذا العام ١٨١٢ وأوائل ١٨١٣ حيث تجلت مقدرته العقلية الخارقة بأسمى مظاهرها

لم يحتج الى اكثر من ٤ أشهر ليعد جيشاً جديداً فسافر في ١٥ ابريل الى ماياتس ومنها الى فيار فلوتسن حيث انتصر في معركة ٢ مايو وبعد ٦ أيام دخل درسد ظافراً وفي ٢٠ فاز في معركة بوتزن وقتل من ورائه المارشال دوروك فكان ذلك سبيلا الى اشاعة سرت بسرعة البرق مؤداها أنه جرح جرحاً بالغاً أو قتل حتى انه عندما رجع الى درسد (في ١٠ منه) زعم الناس أن الذي مر أمامهم في مركبته ليس الامبراطور بل تمثال له من الشمع ولم يصدقوا ببقائه حياً الا بعد أن اطلقت المدافع وقرعت الاجراس

وربما ساعد على هذا الشك ان الامبراطور عند وصوله الى درسد سار تواً الى غرفته لانه كان منهوك القوى من السهر ونام في سريره نوماً عميقاً حتى الساعة التاسعة من اليوم التالي اذ ركب جواده واستعرض الجيش في مروج درسد . ولم يكن من السهل معرفة الحقيقة في حينها لان الامبراطور عود الناس أن يؤمنوا بنجمه الذي لا يعرف الافول وبقوته التي لا يتطرق اليها الضعف فكانوا يعتقدون

أنه أبعد من ان ينـال بأذى الا أن الملتفين حوله والمتقربين اليه ادركوا ما كان يعتوره حيناً بعد حين من شبه نعـاس أو غيبوبة تضعف معها الارادة وترتخي الاعصاب. وقد وصفه المارشال مارمون بقوله « كان قليل الاهتمام بالعواقب لا يصدق الحقيقة الا اذا وافقت هوى في نفسه وكان متحجرفاً يحتقر كل الناس وذا عقل واسع، التدبير كثير الانتاج كعادته الا أنه ضعيف الارادة كثير التردد

ذلك لان الامبراطور كان قد تقدم في العمر وتغير عما كان عليه في اوسترلتز ويانا . والاربعون جاءت شديدة الوطأة على هذا الرجل الخارق العادة الذي تسع حياته أعماراً كثيرة

وقد كان انتصار درسد في ٢٧ اغسطس آخر شعاع من كوكب مجده لولا اعتلال فجائي أفسد نتائجه الباهرة

الفصل العاشر

نتائج سوء الهضم

ان الحركات الحربية التي قام بها الامبراطور حول درسد جرت تحت سيل من المطر لم يدع منفذاً الى بدنه فوصل درسد كأنه قربة ماء من رأسه الى قدمه وانتابته قشعريرة وحمى وفيء كثير وبعد النوم والدفء والعرق نهض في الغد مستريحاً

وقد زعم بعض من لا تنكر شهادتهم ان لاعتلال الامبراطور سبباً آخر هو سوء الهضم بعد أكلة فيها قليل من الثوم لم تحتملها معدته فظن نفسه مسموماً وعاد ادراجه تاركا الى المارشال مونيه وسان سير مهمة اللحاق بالجنرال فاندام ومساعدته ، على أن الجنرال فاندام لم يتقدم الا على امل ان يتبعه الامبراطور عن كثب . فرجوع الامبراطور الى درسد قبل أن ينتهي من حملته حوّل النصر الى انكسار

ومن ذلك اليوم قلب له الدهر ظهر المجن وصارت كل خطوة منه مزلقاً للخيبة ومنحدراً للفشل فاستولى اليأس على الامبراطور وتوارى كوكب آماله خلف ضباب من الاكدار والمخاوف واستحكم التردد منه فبقي شهراً في درسد لا يأتي بحركة

وفي ٧ اكتوبر غادر درسد الى دوبن فوصلها في ١٠ منه وأقام

معركة ليبزيك

في القصر الصغير يومين وهو مستلق على ظهره حاضر كئائب وأمامه أكداس التلغرافات لم تقرأ بل لم تفض . وقد رآه الماجور أودلين قبل معركة ليبزيك بأيام حزيناً خامل الهمة فاتر النظر وقد شمل السكوت ما حوله حتى غرفة انتظاره التي كانت من قبل تشبه حصار تزواده لازدحام الخلق فيها

وكان المارشال ناي ورفقاؤه معارضين له في الهجوم على برلين فاختار ليبزيك وقام بالهجوم في ٦ أكتوبر ولكنه في اليوم الثاني شعر بعودة أوجاع المعدة واشتدادها فانطرح على مقعد وهو يئن من الالم ويردد في نفسه : « قد يحتمل رأسي الالم وأما جسمي فلا » . فعرض عليه الدوق دي فيسانس ان يدعو ايڤان فرفض الامبراطور وقال : ان خيمة الملك شفافة كالزجاج ولا بد من خروجي ليبقى كل في موقفه لان العدو قريب منا . وطالت المحادثة بينهما على هذا النحو :

— ولكنك يا مولاي مريض ويداك ملتهبتان من الحمى فاسترحمك ان تأخذ لنفسك بعض الراحة

— لا . لا يمكن ابداً . ان الواجب يقضي عليّ أن أكون واقفاً مستعداً

— اسمح لي اذاً ان ادعو ايڤان

— إياك ان تفعل اذا مرض جندي اعطيته اذناً بالدخول الى المستشفى فمن يعطيني أنا الاذن . ثم تنهد تنهداً عميقاً وأحنى رأسه . وبعد قليل مدّ يده اليه وشدها بلطف قائلا : الامر بسيط كما ترى فلا تدع احداً يدخل عليّ واني اشعر بالتحسن ثم قام مستنداً الى

ذراعه ومشي خطوات في الخيمة وهو يقول : أنا احسن ايها العزيز

ولم يمض على هذا الحادث نصف ساعة حتى كان نابوليون ممتطياً جواده محاطاً بقواده يلقي اوامره يميناً وشمالا . وما جرى بعد ذلك من ضياع ثمرة النصر بسبب خيانة بعض الفرق ونقص الذخيرة معروف ولا محل لذكره هنا . وقد قال احد المؤرخين : « ان نابوليون في معركة ليبزيك قد أتى بما يفوق طاقة البشر فتغلب على الخيانة وحالة الارض وتفوق العدو بالعدد »

الفصل الحادي عشر

محاولة الانتحار في فونتنبلو

في ٢٥ يناير سنة ١٨١٤ ترك الامبراطور باريس لمحاربة أوربا المجتمعة عليه وفي ١١ ابريل قبل تنازله عن العرش ولم يبق الا أن يضع توقيعه وكان رسول الحكومة الموقتة ينتظر في ناحية من القصر . الا ان الامبراطور كان متردداً وقد مرت في رأسه فكرة الانتحار . وكان يرجو أن تأتي اليه ماري لويز بعد تركها في بلوا . فلما أعياه الانتظار وخاب أمله منها عقد النية على أمر حاسم فنام تلك الليلة قبل الساعة التي أعتادها وترك كعادته باب الغرفة مفتوحاً قليلا وقد نام الخادم (هوبر) على عتبته ونام كونستان في غرفة أخرى فلما انتصف الليل نادى الخادم وطلب منه أن يشعل النار ثم أمره بالانصراف فذهب هوبر ولكنه لم ينم لريبة في نفسه بل أخذ يراقب مولاه من شق الباب فرآه يمسي طولا وعرضاً ثم يجلس ويكتب على ورق ثم يمزق الورق ويلقيه في النار وبعد حين رأى الامبراطور يتناول مسحوقاً من احدى حقائبه ويذيبه في الماء ويتجرعه فخاف وأسرع فاخبر كونستان وعاد معه ودخلا بلا استئذان على مولاهما فوجداه في حالة تهيج شديد وسرعان ما انتشر الخبر في القصر ان الامبراطور قد شرب السم فأنيرت الغرف وقطع سكوت

ذلك الليل وقع أقدام الخدم جيئة وذهاباً . وأقبل ايفان والمارشال الكبير والدوق دي فيانس والجنرال كوركو فوجدوا الامبراطور شاخص العينين جامد النظر أما هو فالتفت الى ايفان وابتدره بهذه الكلمات : ايه ايفان لقد أعطيتني سما لا يفعل . فاضطرب ايفان



الطبيب والفيلسوف كابانيس

وخاف أن يُفهم من ذلك انه أراد تسميمه فترك الغرفة ونزل السلم مسرعاً وذهب الى الاسطبل فامتطى جواداً وانطلق الى باريس ، وكان رابطاً منديلا أبيض بذراعه وبهذه الشارة امكنه ان يخترق صفوف الدول المتحالفة ويصل آمناً الى منزله . أما الامبراطور فقد

سُقي ماء ساخناً فتقيأ وعرق عرقاً غزيراً ونام نوماً هادئاً ومضى الليل بلا عارض

هل حاول الامبراطور الانتحار حقيقة ؟ هـذا ما لا يسعنا الجواب عليه ولـكن ما لا ريب فيه انه لم يكن يهاب الموت وهو الذي يعرض نفسه له كل يوم . وقد كان في الايام السابقة لهذا الانتحار في حالة انحطاط ظاهر حتى اعتراه شبه ذهول فلم يكن ينتبه الى من حوله . وقد يرسل في طلب أحدهم فاذا اتى لبث نصف ساعة دون ان يوجه اليه الخطاب . وذكر خادمه الخاص انه كان ساعة لبسه وزينته صامتاً لا ينبس ببنت شفة فاذا عرض عليه ان يشرب الدواء كعادته في مثل ذلك الوقت لم يكن يجيب بل لم يكن يظهر على ملامحه انه سمع كلام الخادم . وكان كل يوم يزداد حزناً وميلا الى الوحدة وكانت رسائل البرق التي ترد عليه من باريس تسبب له هياجاً خاصاً حتى انه غرز يوماً أظافره في فخذه وأسال الدم دون ان ينتبه

أما السم فقد اختلفوا في ماهيته فبعضهم ومنهم ابن الجراح ايفان يقول انه مسحوق البلادونا وبعضهم يزعم انه نفس السم الذي انتحر به كوندورسه سنة ١٧٩٤ . استحضره كابانيس ولم يذكر تركيبه لاحد

الفصل الثاني عشر

مملكة الاقزام

قضت معاهدة فونتنبلو بتنازل نابوليون عن عرش فرنسا وحرمان أسرته من حقوق الارث وتعهدت له ازاء ذلك أن يكون صاحب السلطة المطلقة في جزيرة ألب

وقد ظن الامبراطور أنه يسمح لماري لويز أن ترافقه في هذا المنفى بعد اقامتها حيناً للتداوي في بارم أو بلازانس او احدى مدن الاستشفاء في ايطاليا فاستشير كورفيزار في ذلك فكان رأيه مخالفاً واضطر نابوليون أن يسافر بدونها يصحبه بعض اعوانه الامناء وأربعة من ضباط الدول المتحالفة لحراسته في الطريق

وكان الناس يستقبلون الموكب الامبراطوري أين حل بالشتائم والتهديد حتى كاد البعض يفتك بالامبراطور عند وصوله الى اورجون

فأثرت مظاهر البغضاء هذه في صحته وسببت له اضطراباً في المعدة وقيئاً فاضطر الموكب الى البقاء حيناً في فريجوس قبل متابعة السفر

على أن نابوليون في طريق المنفى لم يكن يحلم الا بقضاء بقية العمر في امارته الجديدة منصرفاً الى العلوم والآداب فكان يعلل النفس بانشاء مرصد فلكي ومعمل كيماوي وحديقة للنبات ومكتبة

عمومية ولهذا أرسل برتران يستشير موىج وبرتوله ولابلاي ويطلب منهم اختيار أساتذة وعلماء لكل هذا



موىج

ووصل نابوليون الى مرفأ فراجو فى ٣ مايو فكان همه الاول بعد الاستراحة أن يمتطي جواده ويطوف في مملكته الجديدة ثم اتخذ تلك النزهة عادة فصار ينهض كل يوم قبيل الفجر ويسير في أنحاء الجزيرة مخترقاً سهولها وحزونها غير مبال بحرارة الشمس

المحرقة ولا شاعر بتعب التجوال حتى قال فيه المندوب الانكليزي القائم بمراقبته انه يريد أن يحقق الحركة الدائمة او انه يجد لذة في انهاك قوى من يرافقه وأنه أبعد من أن يقوم بالمشاريع التي عرّض بها عند وداع فونتنبلو ما دامت صحته تساعده على الجولان طول النهار ولا تترك له سبيلا الى الجلوس والكتابة

وكانت هذه الرياضة البدنية أنفع علاج للامبراطور بتهييجها وظائف الجلد ومساعدتها على افرازه الا أنها لم تمنعه بعد حين من أن يشكو شدة المناخ ويتألم منه فأخذ يتنقل من مكان الى آخر جاعلا مسكنه حيناً في الجنوب وحيناً في الشمال وآناً في جهة الشرق وآونة في الغرب وكان حيث أقام يعمل على تحسين منزله وتجديد ما فيه حتى اذا تم له ذلك ولم يعد للجديد من رونق أحس بالملل يتطرق الى فؤاده فانزوى في غرفته ساعات متواصلة لا يأتي فيها بحركة كانه محمول على أجنحة الحلم أو مأخوذ بشبه نوم لطيف . على أن صحته لم تتأثر كثيراً من هذه التقلبات ولم تبد عليه علائم التعب والانحطاط بل غاية ما هنالك أنه أقلّ من ركوب الخيل واستعاض عنه بالخروج في مركبته

كيف كانت حياة هذا المنفي العظيم الذي صار ملكا على الاقزام بعد أن ملك العالم ؟

انه مثل دوره تمثيلا صحيحاً فلم يترك حقاً من حقوق الملك لم يستول عليه ولا واجباً من واجباته لم ينهض الى قضائه فكانت الجزيرة كقفير النحل تعج بالحركة عجاً فلا يسمع فيها الا أصوات



مسكن نابوليون في جزيرة ألب

المطارق بين هدم وبناء وقد صدرت أوامره الى كل جانب بتطهير البيوت والثكنات وتنظيف الطرق والشوارع وإلزام السكان بوضع الاقذار في آنية خاصة تفرغ في الليل ومعاقبة من يطرح من بيته سيئاً في الشارع ومنع كل غريب من دخول الجزيرة قبل أن يفتش صحياً. وتنشيف المستنقعات ووقاية مياه السرب وتشييد أحواض كبيرة يخزن فيها الماء لايام الحاجة ومراقبة الامراض السرية وهذا يعلم الناس العائشين في الاقذار معنى النظافة فانتعشت الجزيرة بعد الموات وازدهرت فيها الحياة وذاق السكان للمرة الاولى طعم العيش الرغيد

وكان نابوليون قليل الثقة بالاطباء الا أنه يميل الى الطب ويهتم بكل ما يتصل به فلم تحرم المستشفيات نصيباً من عنايته بل كان يؤمها كل صباح فيصل أحياناً قبل الطبيب وكان يستفهم عن كل داء وعن طريقة مداواته ويظهر تفضيله لوسائل العلاج البسيطة على غيرها

وكانت لجنة الادارة تجتمع مرتين في الشهر لتجمع المعلومات اللازمة وتطلع المليك عليها وعلى كل ما يحدث في المستشفى وقد بلغ من اهتمامه بالصحة والمستشفى العسكري أن حبب اليه بقية المرضى الذين كانوا في المستشفى المدني فطلبوا الدخول اليه وانتهى الامر باقفال هذا الاخير

هذه الحياة المملوءة عزماً ونشاطاً وابداعاً وهذه القوة التي كانت تنفق بلا حساب في هذه القطعة الحقيرة من الارض فتحت لبعض الانكليز والفرنسويين من أتباع لويس الثامن عشر باباً جديداً

للسخرية والتشفي فملأوا الارض نشرات وصوراً تمثل نابوليون في حالات مضحكة ومخزية هذا يسميه البهلوان الذي يقلد محمداً والذي يحكم اليوم على العبيد والقردة وذاك يصوره قرماً محاطاً بكل أحدب



نابوليون في الحمام في جزيرة ألب
(صورة تهكمية نشرت في ذلك الحين)

وأعرج وقد أمر بتعبئة جيش ضخم قوامه ثلاثون رجلا أو مشى للنزهة على الساطىء بثياب روبنسون وعلى رأسه قبعة من الفرو وفي يده مظلة وعلى كتفه ببغاء هي نسره المهيض الجناح

أما هو فلا ريب أنه في أعماق نفسه كان يتألم كثيراً لهذا السقوط الهائل والذي زاد في جراحه هو بعده عن ماري لويز التي كانت

لا تزال تملأ قلبه . وقد كتب لها مراراً من الجزيرة ولكنها كانت تعتذر بانحراف صحتها ناسية واجباتها الزوجية مشغولة عنه بالحب الاثيم الذي علق بقلبها شراره

الفصل الثالث عشر

مشية الظافر



صورة تهكمية ضد نابوليون وهو في جزيرة ألبا

في ١٦ فبراير سنة ١٨١٥ ودع الامبراطور أمه وشقيقته البرنسس بونس وترك قصره الحقير محاطاً برجال السلطة والسكان الذين هرعوا لتوديعه وركب البحر قاصداً شطوط فرنسا فوصلها في اول مارس

وكان أمامه طريقان طريق بروفانس وكلها أخطار لبغض السكان

وشدة عدائهم له وطريق الالب وكلها أمان لكثرة محبيه ومريديه فلم يسعه التردد في الاختيار

ولا يزال في قرية سان فاليه القائمة على قمة الجبل من فوق مدينة كراس تذكار خطي لمرور نابوليون في تلك الناحيـة واستراحته حيناً مع جيشه الصغير قبل مواجهته الاقدار

ويقال أنه في كراس كانت بادية عليه سيماء الضعف والالم حتى كان لا يقوى على الركوب ويتجافاه ما أمكن فأحضر له برتران مركبة كبيرة قطع فيها شوطاً من الطريق ثم تركها لانه أراد أن يظهر للشعب راكباً وربما كان سبب هذا الالم تشنج المثانة الذي كان ينتابه حيناً بعد حين او انه كان مصاباً بالبواسير

ولا نحاول اتباع الامبراطور في مشيته الظافرة نحو العرش بل نكتفي أن نذكر للقارىء ما بقي مجهولا عن الكثيرين وهو أن كرنوبل كانت مفتاح نصره ولو لم تفتح له أبوابها لعاد بالخيبة والفشل وهو مدين بأكثر نجاحه لاخلاص طبيب من أتباعه كان ينتمي الى هـذه المدينة فانه شجع نابوليون وبشره بما يكنه مواطنوه له من الحب والعبادة كما أنه سبقه اليها ومهد له الطريق باقناع المترددين واستمالة الكارهين حتى اذا جاء المساء كانت النشرات تتطاير في الشوارع محيية الامبراطور فلم يبق للضباط والجنود من سبيل الى المقـاومة أمام هذا التيار . ولم ينس نابوليون فضل الرجل فخصه في وصيته الاخيرة بمائة ألف فرنك ووكل اليه والبارون لاراي توزيع ٢٠٠ ألف فرنك على الاحياء من جنود واترلو



كارولين مورات أخت نابوليون

الفصل الرابع عشر

حكومة المائة اليوم

في العشرين من مارس وفي الساعة الرابعة صباحاً فتحت فونتنبلو أبوابها لاستقبال الامبراطور . وفي الليلة التالية كان شيخ عاجز يغادر تلك الديار بعد أن جلس عسرة أشهر على العرش . منفى يعود الى ملكه ومليك يرجع الى منفاه . وهكذا ابتدأت حكومة الايام المائة

وكان نابوليون قد تغير في هذه الفترة القصيرة تغيراً ظاهراً فراد اصفراراً وسمناً وخف نساطه وثملت حركاته وبدأ العجز والانحطاط في قواه ولا بدع فان أحطار السفرة وهمومها وتنظيم الجيوش والحكومة واستعداده لحملة البلجيك فوق ما كان عليه من التألم المعنوي في منفاه وتهيج أعصابه كل حين ـ كل لك كان ينزع عنه ثوب العافية ويخمد نار الهمة ويطفىء شعاع الامل وقد قيل انه لذلك العهد كان حريص النفس تم صورته على اليأس السديد تارة وعدم المبالاة طوراً وكان يميل كثيراً الى النوم وهو الذى لم يكن ينام أكثر من اربع او خمس ساعات . نعم ان صفات نبوعه النادر لم تتغير واسكن الارادة والاقدام والثقة بالنفس قد تزعزعت جميعاً فكان الفكر يؤثر في الجسم ثم يعود الجسم فيؤثر في الفكر (اقرأ تيوفيل كونيه وهنري هوساي وباسكه)



عودة نابوليون في ٢٠ مارس ١٨١٠

وان رجلا عصي المزاج كنابوليون لا يسعه وهو عبد لهذه النوب التي كانت تساوره حيناً بعد آخر وتشتد وطأتها عليه الا أن يرزح تحت أثقالها فيضيع رشده وتخبو همته ويظلم فؤاده ولهذا كانت تعرض له أشباح حوادث المستقبل بصور مخيفة فيتمثل فرنسا مقهورة مداسة فيرتعش بدنه ويتألم فكره ولا يجد سبيلا الى إبعاد هذه التخيلات الا بالنوم . وكثيراً ما أجهش بالبكاء وهو منفرد وأمامه صورة ابنه . ذلك لان نابوليون لم يعد يؤمن بنجمه

الفصل الخامس عشر

واترلو

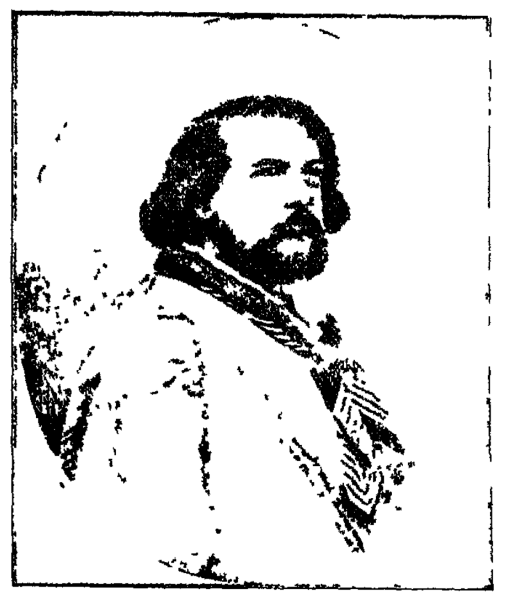
ترك نابوليون باريس قاصداً الى شارلروا وآماله بالنصر ضعيفة ولما وصل الى شارلروا انطرح على سريره منهوك القوى ولم ينهض للعمل في الصباح الا نحو الساعة الحادية عشرة فخسر ساعات ثمينة كفت بلوشر ليتم استعداده ووالنتون لينال النجدة اللازمة.

وقد ذكر كروشي أنه في اليوم التالي أي في ١٧ كان التعب الشديد بادياً على وجه الامبراطور ولم ينكر عليه منتقدوه ابداعه في الخطة التي رسمها في « ليني » ولكنه لم يمض فيها الى النهاية فانه عندما وقفت رحى المعركة اضطجع في سريره ونام ولم يجرأ احد ان يوقظه ليتلقى اوامره وهكذا مضى اليوم والغد وهو على هذه الحال حتى قال الجنرال فاندام : ان نجاحنا سيكون عقيماً

وفي ١٨ كان المطر قد انقطع تماماً وهبت ريح قوية جففت الارض فاختار نابوليون مركزه عن يسار الطريق على قمة يشرف منها على الميدان وأتوه بمائدة صغيرة نشر عليها خرائطه ولبث طول المعركة كأنه في خمول يذكرهم بيوم موسكو

هل كان هذا الخمول أو النعاس او انحطاط القوى أمراً عارضاً أو هي الاعراض التي كان يشعر بها من زمن طويل ؟ هذا لا يزال

سراً من الاسرار وكل من درس المسألة ابدى رأياً . اما نابوليون



تيوفيل غوتيه الشاعر

فكان يقول في جزيرة القديسة هيلانة عن ذلك اليوم المشئوم : انه انكسار لا يفهم له سبباً . ونسبه تياري الى القضاء والقدر ومالو



رحيل لويس الثامن عشر (١٩ مارس ١٨١٥)

الى تزعزع ثقة الامبراطور نفسه وهنري هوساي الى انحطاط قواه العقلية وكلوزفتز الى مخاطرة الامبراطور بلا حساب كما يفعل المقامر

أما شهادة الاطباء فهي أن نابوليون لم يضع وعيه ولم تخنه الذاكرة ابداً ولكن ألم الجسم أثر في أخلاقه وضعضع حواسه وعلى رأي



ديكوست البلجيكي
وهو دليل نابوليون يوم واترلو

كابانيس ان الامبراطور في معركة واترلو كان يتألم من البواسير وهذا الداء قديم يرجع عهده الى أيام الصبا كما يظهر من كتاب أرسله سنة ١٨٠٩ الى اخيه جيروم . اضف الى هذا العامل المرضي العامل الجوي للامطار التي هطلت وجعلت الارض بحيرة من الوحل لا يمكن الخيل والمركبات أن تتحرك فيها يتبين لك بعض الاسباب في اندحاره

وهناك عامل ثالث لا يجب ان نتناساه وهو العامل الادبي فقد تعبت فرنسا من حرب لا تعرف العاية منها وتاقت الى السلام فخفت حماسة الفرنسوي وانتقلت الى أعدائه يدلك على هذا تصرف كل من القائدين الفرنسوي والروسي



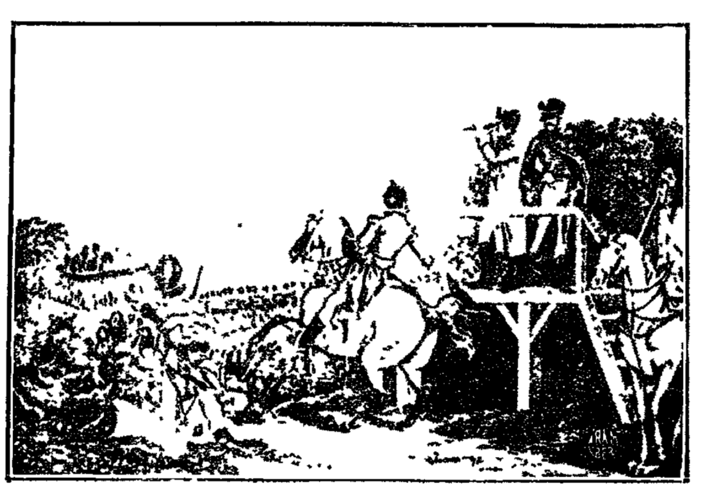
أثر لذكرى الحرس الامبراطورى
« الذي فضل الموت على التسليم »

هذا يصدق الهامه لانه يريد الانتصار وداك يتردد ويقف لانه لم تعد حدوة الحماسة تلهب عواطفه

فلا ريب ان نابليون كان مريضاً يوم واترلو . وقد أثر هذا المرض في نتيجة المعركة . عير انه لا يحق لنا ان نلقي تبعة الانكسار

كلها عليه فنسى كما قال مونتسكيو « الاسباب العامة التي ترفع الممالك وتخفضها »

ونابوليون كغيره خاضع لهذه الشرعة . فلو لم يقهر في واترلو لقهر بعدها



نابوليون يترقب معركة واترلو

الفصل السادس عشر

الى المنفى

بقي نابوليون متردداً في اختيار البلاد التي ستكون مقره في منفاه وقد اشار عليه بعض أصحابه أن يقصد الى أميركا أما هو فلم يستطع أن يعقد عزماً كأنه يخاف المخاطرة او ان قوة غريبة شريرة كانت مسيطرة عليه

ولما جاءه أمر الحلفاء وهو على ظهر الباخرة بلرفون بأن تكون اقامته في جزيرة القديسة هيلانة كانت قواه الادبية والبدنية في خور وانحطاط . ولم يسمح بمرافقته الا لعـدد محدود من ضباطه وأعوانه . وقد تألم في الاسبوع الاول من دوار البحر فتعرف الى الجراح الانكليزي أوميرا وطابت به نفسه فسأله أن يكون طبيبه الخاص فلم يرفض على شرط أن يكون حراً في تركه متى أراد

وبعد ثلاثة أشهر بدت للاعين جزيرة القديسة هيلانة بشواطئها الصخرية فكانت من المناظر التي تنقبض لها النفس أيما انقباض

وقد ذكر هودسون لوسجان نابوليون أن الفكرة في ارسال الامبراطور الى هـذه الصخرة المنفردة كأنها سجن قائم في وسط الاوقيانوس ليست بنت الاتفاق او الالهامات الفجائية التي تومض في عقول رجال السياسة بل هي نتيجة تفكير طويل يرجع عهده الى

جزيرة الب فان السفراء كانوا لذلك الحين يتداولون في مؤتمر فينا في



مدام دي مونتولون

نقله الى ما وراء الاوقيانوس والذي أدلى لهم بهذه الفكرة هو والنتون.
وكان نزول نابوليون الى البر في جامستون في ١٧ اكتوبر .

وجامستون هذه مدينة صغيرة جميلة المنظر نظيفة البيوت يضاؤها الا أنها اتون نار في الصيف . وهي واقعة بين جبلين وليس لها الا



صورة لنابوليون عند وصوله الى جزيرة القديسة هيلانة

شارع واحد . وقد أحس الضيف الجديد بحرها ورطوبتها ولهذا قبل مع الشكر خيمة أرسلها له الاميرال مالكوم ليأوي اليها

وقد كانت أيامه الاولى في المنفى سعيدة اذا قيست بما بعدها .

وذلك انه كان لاحد الموظفين في شركة الهند الشرقية بيت جميل قائم على بعد ميل من المدينة تحيط به أشجار الموز والرمان والورد البري فقدمه هذا الموظف (ويقال انه الابن الشرعي للبرنس دي غال) الى الامبراطور ورأى هذا من مضيفه وحسن معاملته ما حبب اليه البقاء في تلك الناحية ورفض الرجوع الى جامستون ولكن الامر لم يكن له

وكانت عيشة نابوليون في هذا المنزل صحية مقتصرة على النهوض من النوم مبكراً والاكل القليل والرياضة . وكان لطيف المعشر يأنس به كل من قاربه ويعجب باخلاقه ومعارفه حتى ان طبيب المكان لم يكن يفتأ يذكر نابوليون بالثناء وتعداد معارفه الطبية

وقد بينا فيما سبق رأي نابوليون في الطب وانه لم يكن يصدق الاطباء على احترامه لهم ويعتقد ان خير علاج هو الحمية والحمامات الساخنة

ولما تم اصلاح لونكوود وصارت أهلا لاستقبال نزيلها أرسل المارشال برتران في طليعة القوم لدرس حالة المسكن ثم أتبعه بلاكاز لان رائحة الدهان كانت قوية وهو لا يقوى على احتمالها . فلما جاءه تقرير هذا الاخير بان الرائحة قد خفت ذهب اليها (١٠ سبتمبر سنة ١٨١٥)



نابوليون في منفاه (عن رسم من ذلك الحين)

الفصل السابع عشر

لونكوود



منظر لونكوود

لم تكن لونكوود على رأي احد كتبة الانكليز تصلح لغير البهائم فالريح تقصف فيها ليل نهار والرطوبة منتشرة في الجو والارض جرداء تكاد لا تجد فيها خيالا للظل . وكان الانتقال من الاعصار الى الامطار الى الضباب أو ضربة الشمس المحرقة امراً عادياً لا يخلو منه يوم

وكان يخيل الى نابوليون كلما دخل غرفته أنه داخل في سرداب او نفق تحت الارض لشدة الرطوبة وكثيراً ما جاء المساء فاذا ثيابه تعصر من جراء تلك الرطوبة

والذي زاد الطين بلة فضاق له صدر نابوليون وعيل اصطباره وارتفع صوته بالشكوى على غير طائل هو وجود الجرذان بكثرة هائلة في الجزيرة . جرذان كبيرة لها جلبة بصوت يملأ البيت وتمشي تحت الاسرة وفوقها وتقفز من ناحية الى اخرى وتدخل في الارض وفي السقف وفي الحائط حتى انهم اضطروا الى مطاردتها باطلاق البارود عليها

وقد حدث مرة أنه اراد بعـد الاكل ان يلبس قبعته فما كاد يمد اليها يده حتى باغته جرذ كبير كان في تلك القبعة

وكان هدسون لو سجانه وجلاده وحاكم الجزيرة يضحك من هـذه الامور وكلما زاد نابوليون في الشكوى زاده هو سخرية واستهزاءً

هذا هو المكان الذي اعد سكناً لمن كانت تضيق به قصور الملوك

وكان منزله الخاص مؤلفاً من حجرتين واحدة للنوم وأخرى للاستقبال وحمام وملعب صغير للبلياردو على ضيق في المساحة وبساطة في الاثاث وفقر في النور والهواء . والذي يستلفت الانظار وسط هذه الاشياء الحقيرة مغسل جميل من الفضة كان البقية الباقية لمجد قد مضى

وكان نابوليون يقضي القسم الـكبير من النهار في حمامه او على

مقعد مغطى بفراش ابيض فيضطجع عليه والى جانبه كتب كثيرة وهو مرتد بذلة الصباح فوق بنطلون ابيض وقيصه مفتوح عند العنق وغطاء رأسه قبعة حمراء ذات رسوم مربعة . واذا أراد الخروج لبس بذلة خضراء للصيد ذات أزرار ملونة حتى اذا خلقت جدتها أبى تغييرها وفضل ان يقلب جوخها عن ان يلبس جوخاً انكليزياً

وقد مرت الايام الاولى في منفاه وهو ينام الى ساعة متأخرة من النهار خلافاً لعادته ثم أخذ ينهض مبكراً نحو الخامسة فيخرج للنزهة راكباً ويعود للاستحمام . وعند الساعة الحادية عشرة يتناول غداء بسيطاً مؤلفاً من العدس والبيض الطازج وقليل من اللحم مع النبيذ الممزوج بالماء ثم يلبس عند الساعة الثانية لباسه ويتعشى نحو السابعة . ولم يلبث أن غير هذا النظام إكراماً لمدام مونتولون فصار الغداء الساعة الثالثة والعشاء نحو العاشرة

وكانت شهوة الامبراطور للاكل حسنة . ومن عاداته ان يطلب كتاباً قبل نهاية الطعام فيقرأ بصوت عال بينما يكون المارشال برتران منهمكا في اكل الملبس والحلوى . ثم يتناول شيئاً من القهوة ويختلي مع بعض أصحابه للمحادثة او لعب الشطرنج حتى اذا دقت الساعة العاشرة او الحادية عشرة يصرفهم جميعاً ويدخل الى غرفة النوم

وكان يقوم الساعة الثالثة صباحاً فيطلب نوراً ويأخذ في المطالعة الى الساعة السابعة ثم يعود الى النوم . وله طريقة خصوصية في قراءة

الـكتب وهي تقليب الصفحات بسرعة فيأتي على آخر الـكتاب في ساعة من الزمن

والمشهور انه لم يكن يسمح لاحد ان يظل في حضرته جالساً أو لابساً قبعته . وحكت لادي مالـكولم انه بقي يوماً أربع ساعات يتمشى في ردهة لونكوود وكل منهما متأبط قبعته . ذلك لان الامبراطور كان يفضل احتمال هذا التعب على ان يرى نفسه مع زوجها غير محترم كما يريد . وكم مرة أحس طبيبه انتومارش بالاعياء لاضطراره الى الوقوف زمناً طويلا وهو لابس ثوبه الرسمي اذ لم يكن يقبل بدونه

الفصل الثامن عشر

آخر مراحل العذاب

ليس بين أيدينا كتاب يشرح بالتفصيل حالة السجين العظيم في أعوامه الاخيرة ويذكر لنا التطورات التي تقلبت فيها صحته منذ أخذ الداء يظهر فيه باجلى مظاهره . نعم ثمة تقارير الحلفاء لمندوبيهم القائمين بمراقبته ولكنها لا تحوي كل الحقيقة . لانه لم يكن يسمح لهم بمواجهته . وكل ما فيها قائم على الاشاعات والاخبار الدائرة على الالسن

والذي يمكن استنتاجه من كل ما قيل عنه ان هذه التطورات ابتدأت في سنة ١٨١٦ فقد ذكر موتولون ان الامبراطور كان في يوليو من تلك السنة يتألم شديد الالم من أعصابه ومن الصداع حتى كان لا يقوى على العمل

وأراد هدسون مقابلته في أول اكتوبر فرفض بدعوى المرض أو التمارض ولم يخرج في عداة ذلك اليوم . وفي ٢٤ منه أبى أيضاً ان يستقبل أحداً . ولما رأوه بعد يومين كانت لثته ملتهبة وعلى شفتيه بعض البثور الناتجة عن الحمى . ولم تمنع هده الاعراض الواضحة مندوب النمسا أن يكتب الى مترنيخ « لا يزال بونابرت بتمام العافية . يأكل كثيراً ويسمن » . وبديهي ان يسمن رجل قضى عمره في الحركة ثم منعت عنه دفعة واحدة . وكان يقول لمن يذكره بضرورة

الرياضة والخروج للنزهة في العراء « انكم لا تفهمون شيئاً عن صحتي فانا شاعر بالحاجة الى الرياضة ولـكن رياضة صحيحة طويلة أقطع فيها



الدكتور أوميارا

الاميال لا دورة محدودة حول هذا البستان الصغير نتيجتها احتقان في رأسي وألم في مفاصلي »

وكان يميل الى الركوب في بادىء الامر . غيران وجود ضابط انكليزي على أعقابه جعله يكره ذلك فاكتفى بالحركة داخل البيت تارة يلعب بالبلياردو وطوراً يترجح على جواد من خشب صنعه خصيصاً لذلك .

وفي عام ١٨١٧ زادت آلامه وقل نومه وأصابه ورم في رجليه وخور في أعصابه وتعب في عضلاته . فكان يقول لمونتولون « ان دمي سيقتلني ففي النفس حاجة عظمى الى الحركة والتعب ولكن أنى لي ذلك . وهدسون يخترع كل يوم سبباً جديداً لمنعي من الركوب »

لا ريب ان الذي مهد السبيل الى هذا الانحطاط السريع الهائل في صحة الامبراطور هو الاقامة في جزيرة القديسة هيلانة ومعاملة هدسون القاسية . فان هذا الحاكم كان ضيق الادراك فلم يدع سبباً من أسباب الاضطهاد والجاسوسية الا أخذ به وحول الجزيرة بالمدافع وحراسة النسافات الى سجن يقتل العافية كما يقتل الامل . أضف الى ذلك فساد الهواء في تلك الناحية فقد كانت آثاره السيئة بادية على كل وجه . حتى قال أوميرا انه من المستحيل أن يعمر انسان في هذه البقعة من الارض وان منظر امرأة عجوز فيها لمن الامور الخارقة العادة » . وقد شكا سوء المناخ كل من في حاشية الامبراطور ماعدا برتران حتى ان أولاد هذا أصابهم من الحمى والضعف ما كانوا منه على شفا خطر وقد سبق لنابوليون قبل المنفى أن عانى الاجهاد فلم يرزح تحته واتفق له غير مرة أن تناول من

الطعام ما لا يلائم معدته وان أكل بلا نظام دون ان يشعر باذى



السير هدسن لو

ولكن مناخ الجزيرة واضطهاد حاكمها قد غلباه على أمره وساعدا على اظهار الداء قبل أوانه

ومني نابوليون بالاسهال والدوسنطارية فقلق مندوبو الحلفاء وطلبوا من هدسون أن يسمح لهم بمقابلته فأبى

وتحسنت صحته بعد ذلك فمضت عليه أسابيع دون ان يشكو ألماً ثم عاودته الاعراض بشدة من ورم ووجع وعسر بول وكان مقر الالم في الجانب الايمن من المعدة وفي الكتف اليمنى يصحبه أحياناً



الدكتور انتومارشي

خفقان القلب الشديد فشخص اوميرا التهاباً في الكبد ولم يحاوله اخفاء رأيه عن عليله بل ترك الفكرة تتسرب اليه شيئاً فشيئاً وهو يعالجه بالمسهلات والمقرقات وحمامات البحر ولما رأى نابوليون أن كل هذه الوسائل لم تجد نفعاً بدأ الحزن يفعل فيه والخمول يتسلط عليه فعاف الكتابة والتأليف وصار يميل الى الوحدة وتمشى التعب

في مفاصله والانحلال في أعصابه وأصبح لا حديث له الا الموت فكان يقول لمونتولون : « انتظر الموت صابراً فهو منقذي الوحيد من هذا العذاب »

وكان الجفاء قد بلغ حده الاقصى بين اوميرا وهدسون لان



نابوليون يفلح الارض في منفاه

الطبيب أبى أن يكون جاسوساً للحاكم فجاء ذلك ضغثاً على ابالة لانه أفضى الى عزل اوميرا ووضعه تحت المراقبة ثم تسفيره سنة ١٨١٨ وصار نابوليون في حيرة شديدة فاما ان يقبل الاطباء الذي يعينهم سجانه وإما يبقى بلا معونة طبيب . وكانت أوجاعه تتزايد يوماً بعد

يوم وقد خفت فيه شهوة الاكل وساورته فكرة الخوف من أن يموت مسموماً فامتنع عن كل دواء . وصار مونتولون يقضي الليالي الى جانبه مواسياً ومعزياً فيضع الكمادة الساخنة على معدته وهو يشهد عن كثب دبيب الداء ويرى آثار فتكه في اصفرار الامبراطور وهزاله وفي عينيه الغائرتين ورجليه اللتين لم تعودا قادرتين على حمله



قبر نابوليون في جزيرة القديسة هيلانة

وبقي على هذه الحال بدون معالجة من شهر يوليو سنة ١٨١٨ اي منذ سفر أوميرا الى يناير سنة ١٨١٩ وكلما عرض عليه هدسون لو طبيباً رفضه نابوليون بحجة أنه ضعيف مضطهد فلا تكون تقاريره صادقة الا بقدر ما ترضي الانكليز . كان هدسون يقول : اذا كان بونابرت لا يقبل من أعينه من الاطباء فلأنه متمارض ويخاف أن تكشف حيلته

وفي ذات يوم اصابت العليل نوبة شديدة غاب فيها عن الوعي فاختار أصحابه طبيباً من بين الاربعة الذين عرضهم « لو » وهو



دوق ريشتاد (ابن نابوليون)

الدكتور ستوكه مفتش البحرية الملكية وأرسلوا في طلبه مستعجلين

فلما وصل كانت النوبة قد زالت واستولى على المريض نوم الراحة فلم يتسن له أن يراه ولكن برتران حادثه حيناً وعرض عليه أن يقوم مقام أوميرا بمعالجة مولاه فأبى خوفاً من ان يصيبه ما أصاب زميله من اضطهاد الحاكم ثم لان بعد التيا والتي وقبل تولي هذه الوظيفة

وجاء تشخيص ستوكه للعلة مطابقاً تشخيص أوميرا بل زاد عليه ان المناخ هو العامل الاكبر في مرض الجنرال بونابرت فكان هذا الاعتراف شكوى صارخة ضد الحكومة الانكليزية عادت عليه بسوء المغبة اذ أرسل له الاميرال بمغادرة الجزيرة حالاً والمثول أمام محكمة عسكرية .

وكانت التهم الموجهة الى الطبيب ستوكه عشراً منها انه تحدث مع الجنرال وحاشيته فيما هو خارج عن موضوع الطب وانه في تقريره الاول سمى الجنرال بغير ما تقرر تسميته به فدعاه « المريض » في حين لم يكن هدسون لو يعترف بمرضه . وبعد مرافعة أربعة أيام حكم على ستوكه بشطب اسمه من البحرية وانزال معاشه الى ٢٥٠٠ فرنك في العام ولكن نابوليون كان قد منحه من قبل ما رأى فيه التعويض الكافي فضلا عما وقفته له الوالدة وبعض أعضاء الاسرة الامبراطورية

وقد جاء هذا الحكم مثبطاً للعزائم ونذيراً لكل طبيب يريد أن يحافظ على الذمة والضمير . فاما أن يقول الحقيقة فيتعرض لغضب

الحاكم وانتقامه أو يعلن ان بونابرت ليس مريضاً واذاً فلا حاجة الى معالجته

وغضب مندوب النمسا وروسيا لهذه المعاملة فاحتجا بشدة واندرا الحاكم انه اذا قضى الامبراطور نحبه فهما لا يتحملان تبعة ما ينتج عن ذلك من القيل والقال

كل هذا وهدسون لو باق على عناده واعتماده فلا يحيد قيد شعرة عن الخطة التي اختطها لنفسه في معاملة أسيره فاتحاً بتصرفه باباً واسعاً للاخبار الكاذبة والاشاعات التي ما أنزل الله بها من سلطان فكان سكان الجزيرة يقولون تارة ان نابوليون صار راعياً واشترى أجمل الاغنام وهو يتسلى باطعامها بيده وقد وضع في أعناقها أجراساً كي لا تضيع بين الصخور وطوراً انه يخرج للتنزه في لباس الصباح وعلى رأسه عمامة حمراء وفي يمناه عصا البلياردو وفي يسراه نظارة تقرب الابعاد والويل لمن يجسر أن يدعي انه عليل

وبقيت مسألة طبيبه مشكلة المشاكل وكلما عرض الحاكم واحداً رفض نابوليون مقابلته الى أن جاء الجزيرة الدكتور انتومارشي موفداً من قبل الوالدة وعمه الكردينال

جاء انتومارشي فكانت زيارته الاولى للحاكم الذي أحسن استقباله وانتهز الفرصة لاقناعه ان مرض السجين ليس الا خداعاً وقد كفت هذه الزيارة ليجعل الامبراطور ينظر اليه بغير عين الرضا الا انه اغضى الطرف أخيراً عند ما عرف ان في حقيبته انتومارشي كتباً من تأليف أوميرا وفيها طعن بهدسون لو



نابوليون في ساعة الموت
(عن رسم صنع قبلا)

وساعد على الرضا تحسن صحته فجأة فاخذ ينزل الى الحديقة ويشتغل بيديه في غرس الاشجار وسقي الازهار مسروراً بما تجلبه له هذه الرياضة من لهو الخاطر وتناسي الحاضر فعادت اليه شهوة الاكل وانقشع عنه ضباب الاسى والسوداء وخف ارقه وسكن هياجه الا ان ذلك لم يطل فما عتم الداء ان أعاد الكرة عليه بشدة وقوي الالم في معدته وكان هـذه المرة أشبه بطعن المدية ولم تفد معالجته انتومارشي بل كانت تزيده تأججاً بما كان يعطيه من المقيئات والمسهلات حتى صاح نابوليون الغوث من هذه الادوية وسأل طبيبه ان يبعد عنه كأسها القاتل ولكن انتومارشي لم يسمع شكواه ولم يفهم وظل على غيه في وصفها وتدبيرها الى ان تذكر نابوليون ان كورفيزار أشار عليه يوماً في حال مثل هذه ان يستعمل الكي فقال للطبيب في ذلك ففضل هذا « الحرّاقة » على الكي فقال له العليل المسكين « ألا ترى اذاً كفاية في تعذيب هدسون لي » فاعمل ما بدا لك ولكن انتومارشي كان يجهل حتى طريقة وضع « الحراقة » فلم يقطعها بالشكل الموافق ولم يحلق الشعر في الموضع الذي اختاره لها فلما عاد في اليوم التالي ليرى فعلها استقبله نابوليون باللوم والتقريع قائلا « ليس من العدل ان يقضى على مسكين مثلي بهذا الوجه فانت جاهل وانا أجهل منك لقبولي علاجك »

وفي رأس عام ١٨٢١ أراد الامبراطور أن يستقبل «هيئة بلاطه» فلم يقو على ذلك وجرب بعد ذلك ركوب الخيل فعاد بعد ساعتين منهوك القوى . وكان يعوم في الليل ويشرب ليموناده « لاطفاء النار

المتقدة في أحشائه » وعند الصباح يزوره انتومارشي كالعادة فيكتب له الدواء ويمده بعجائبه الموهومة . وكلما جرّ الحديث الى استشارة طبيب آخر كان الجواب التسويف حتى شهر آذار فجاء الدكتور ارنولت وقال لمونتولون « لا اعلم ما ينتظرني ولكني أُعدك اذا تشرفت بمقابلة الامبراطور ان أتصرف كجندي لا يطيع الا ضميره والشرف »

ولم يكن انتومارشي يجهل احساسات الامبراطور نحوه لانه لم يعرف ان يكتسب ثقته لسوء تصرفه واهماله وجهله فطلب مغادرة البلاد وعاد اخيراً فرضي البقاء واعداً ان يكون اكثر يقظة وعناية واهتماماً

وأصبحت تغذية الامبراطور صعبة لان معدته كانت تلفظ كل ما يدخل اليها وكان القيء هذه المرة اسود بما لم يبق معه ريب في طبيعة الداء ولكن انتومارشي بعيد عن ان يفهم او يرى في علة الامراض غير التهاب الكبد فاشار باستعمال طريقة « الير » المشهور لذلك العهد فطلب نابوليون كتاب الير واطلع على ما فيه فاذا الطريقة استعمال الليمونادة مع المقيء فقبل تجربتها فكانت ويلاً عليه

لم يبق للامبراطور حينئذ الا الرجوع الى عادته القديمة وهي الحمية واستعمال المغاطس والشراب المبرد ولكن الداء كان يمتي بسرعة هائلة حتى أميط الحجاب عن بصر الحاكم فآمن بمرض الامبراطور وعرض عليه ما شاء من الاطباء

وأخذت النوب تتكرر من ألم وغيبوبة وهذيان وقد سمعه

مونتولون في الليلة الاخيرة يذكر فرنسا والجيش وجوزفين ثم رآه ينهض من سريره مندفعاً بسرعة فحاول رده فلم يفلح بل شعر أن تهيج الامبراطور قد أعطاه قوة خارقة العادة حتى رمى مونتولون على الارض وشد عليه الخناق . وكان ارشمبلولت في الغرفة المجاورة فاسرع عند سماعه الجلبة وساعد مونتولون على ارجاع المريض الى سريره وأقبل بعد ئوان المارشال واشومارش وكانت العاصفة قد هدأت . وبعد حين أشار اليهم بيده يريد ماء فقدموا له اسفنجة مبلولة لانه لم يعد يستطيع البلع

وطلعت عليه شمس اليوم الخامس من شهر مايو وهو في حالة النزع الشديد وآذنت بالمغيب وهو يلفظ آخر انفاسه

ذيل

ظهر من تشريح الجثة ان نابوليون كان مصاباً بالسل الرئوي وقرحة سرطانية في المعدة أما احتقان الكبد فقد أنكره البعض من الانكليز كي لا يقال ان مناخ الجزيرة قضى عليه . واذا كان اتفق الاطباء في حياته على تشخيص التهاب الكبد فلأن الداء كان متفشياً في تلك البقعة فلم تنصرف أفكارهم الى سواه . ونتج عن خطأ التشخيص خطأ العلاج فأكثروا من العقاقير المهيجة كالزئبق وغيره على الرغم من تألمه وممانعته . مسكين كم تناول من المسهلات والمعرقات والمقيئات والحبوب والحقن والاشربة المختلفة والمغاطس المالحة . معالجة قاسية عقيمة خالية من الرحمة هيهات أن يقوى على احتمالها أشد الاجسام صلابة . قيل انه قال يوماً لمن قدم له الدواء : دعني وليكن موتي من الداءِ لا الدواءِ . وقال لمونتومارتي : خل أدويتك جانباً أيها الطبيب فاني لا أريد أن أصاب بعلتين مرضي والمرض الذي تعطيني اياه

ولا ريب انه لو وجد نابوليون لعهدنا هذا لكان نصيبه من المعالجة أحسن وأوفى فان تشخيص الداءِ في حينه يساعد على محاربته وتخفيف أعراضه وان لم يصل الى قتل جرثومته أو تغيير الوراثة

ما يقول العلم عن وراثة السرطان ؟

اتفق اكثر الاطباء على ان السرطان ليس وراثياً وأهم من يؤيد هذه الفكرة الاستاذان دلبه وكنير من باريس ولا يخفى أهمية

ذلك من الوجهة الاجتماعية ولا سيما في مسائل الزواج . ومن الادلة على صحة هذا الرأي انك قلما تجد بين المرضى بالسرطان من ورث ذلك عن أبيه وبالعكس فان غير واحد من المصابين بأمراض مختلفة كان السرطان عند آبائهم ولم ينتقل اليهم

ان آفة أسرة بونابرت هي الارتريتسم لا السرطان وقد حاولنا تفسير هذه الكلمة في صدر الكتاب فلا نعود اليها خوفاً من أن نزيدها غموضاً . كانت والدة نابوليون مصابة بالاوجاع العصبية وأبوه بالسرطان فجاء حاملا هذا المزاج المرضي أي الارتريتسم الذي من اعراضه البواسير والامساك وسوء الهضم والاكزيما والسمن والاحساس الزائد بالبرد وضعف الكبد والصداع ومرض الكلية . وكل هذه الاعراض اجتمعت فيه على نسب مختلفة وقد وجدوا لدى تشريحه حصى كثيراً في المثانة

وعلى الجملة فان نابوليون بونابرت امبراطور فرنسا ومدوخ العالم وسجين هدسون لو كان صورة من صور ذلك المزاج الارتريتيكي الذي يقتل صاحبه . وتاريخه هذا درس من دروس الطب العام يجد كل واحد منا فائدة فيه كما قال أوغست كونت « الاموات يديرون الاحياء »

انتهى

فهرس الكتاب

صفحة